

المقابر

البرجان

Les Borgana ou Varègues

من هم البرجان الذين كثر ذكرهم في كتب العرب التاريخية القديمة وما سمعهم باللغة الفرنجية؟ هذا سؤال يجب ان يقف على جوابه كل من يهتم بالاطلاع على اخبار الاقدمين والامم السالفة. فأقول: اذا اردنا الوضوح في هذه المسألة فيجدر بنا ان نقسم البحث الى ثلاثة اقسام وهي: قسم نذكر فيه كلام مؤرخي العرب او مشاهيرهم. وقسم نذكر فيه آراء لغويي العرب وقسم نأتي فيه على ما صرح به علماء الافرنج ومستشرقهم ثم نختم هذه الابواب الثلاثة بخاتمة تكون بمنزلة فصل الخطاب.

١. القسم الاول كلام مؤرخي العرب او مشاهيرهم

اول من ذكر البرجان من جغرافيي العرب هو اول مؤلف عربي صنف في وصف البلدان اعني «ابازيد احمد البلخي صاحب «كتاب صور الاقاليم» المتوفى ليلة السبت لتسع مئة من ذي النعدة سنة ٣٢٢هـ (= ٣ تشرين الثاني ٩٣٣م) اذ يقول: «اما مملكة الاسلام فان شرقها (في عهد المؤلف) الهند وفارس. وغربها مملكة الروم وما يتصل بها من الارمن واللات والبرجان والسريز والخزر والروس والبلغار والصقالبة وطائفة من الترك. وشمالها مملكة الصين وما اتصل بها من بلاد الانراك ومنها بحر فارس» اه المطلوب من ايراد. وقال ابن خردادبة: «والعمل الثاني (من بلاد الروم) عمل ترائية وحده من المشرق السور ومن الجنوب عمل مقدونية ومن الغرب بلاد برجان ومن الشمال بحر الخزر» وقد

جاء في كتاب المسالك والممالك ذكر البرجان مراراً عديدة وكلها بهذا المعنى
وقال ابن الفقيه في كتاب البلدان : « واليهما (اي الى الري) تقع تجارات ارمينية
وأذربيجان وخراسان والخرز وبلاد برجان » اه
واما اليعقوبي فلم يعرض لذكرهم . ومن ضرب صفحا عن ذكرهم ايضا الاصطخري
وابن حوقل والمتقدمي وقدامة بن جعفر والبكري والبيروني

وقال ابن الوردي عن ارض البرجان ما حرقه : « هي ارض عظيمة واسعة بها من
البرجان ام لا تحصى وهي امة طاغية قاسية بلادهم واغلة في الشمال » ويقول عن ارض
البلغار ليبين لك انها ليست ارض اولئك كما زعم ذلك بعض المتأخرين او المعاصرين :
« هي ارض واسعة ينتهي قصر النهار عند البلغار والروس في الشتاء الى ثلاث ساعات
ونصف ساعة » قال الجواليقي : « ولقد شهدت ذلك عندهم فكان طول النهار عندهم
مقدار ما اصلي اربع صلوات كل صلاة في عقيب الاخرى مع الاذان وركعات قلائل
الافامة والنسبيح . وعماراتها متصلة بعمارة الروم . وهم ام عظيمة ومدنيتهم تسمى بلغار
وهي مدينه عظيمة يخرج واصفها الى حد التكدب »

وقال الطبري (١ : ٢١٨) من ولد يوان : الصقالبة وبرجان . (وفي ١ : ٢٢٩) وملك (افر يذون
ابنه) سلاً : الروم والصقالبة والبرجان وما في حدود ذلك . (وفي ١ : ٩٠٠) : « وانوشروان
غزا برجان ثم رجع فبنى الباب والابواب » (وفي ٢ : ١٣١٧) وفي هذه السنة (اي سنة
٩٨) اغارت برجان على مسلمة بن عبد الملك وهو في قلعة من الناس فامده سليمان بن عبد
الملك بمساعدة او عمرو بن قيس في جمع فمكرت بهم الصقالبة . ثم هزمهم الله بعد ان
قتلوا شراحيل بن عبدة . اه (وفي ٣ : ٧٧٥) وقتل في هذه السنة (سنة ١٩٣) تقفور ملك الروم
في حرب برجان » (وفي ٣ : ١٤٥٠) وقد كان اذن (ملك الروم في سنة ٨٢٤٦) لوفود
برجان وغيرهم ممن ورد عليه . اه

وقال المسعودي في كتاب التنبيه : « وسد الاقليم الخامس بحر الشام الى اقصى ارض
الروم مما يلي البحر الى تراقية وبلاد برجان والصقالبة والابر الى حد ارض ياجوج
وماجوج » وقال في موضع آخر من كتابه المذكور : ان السبب في ذلك (في انحصار
الملك قسطنطين على اعدائه) ظهور صليب له نوري في السماء في نومه في حال حربه مع
ملك برجان وانه قيل له : استنصر به على عدوك تنصر عليه . اه
وقال (في ص ١٤١) : وقد دخل كثير منهم (من الاجانب) في وقتنا هذا في

جملة الروم كدخول الارمن والبرغر وهم نوع من الصقالبة والبيجناك من الانراك ففتحوا بهم كثيراً من حصونهم التي تلي الثغور الشامية وجعلوهم بازاء برجان وغيرهم من الامم المتأبدة بهم والمحيطه بملكهم ٠٠٠ وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا السبب في كيفية بناء القسطنطينية والتنازع في ذلك ٠ وقول من قال ماوراء الخليج كان من ارض برجان فاحتال قسطنطين على ملك برجان لعلمه بالموضع وحصانه حتى اذن له في بنائها ٠

وقال (في ص ١٦٤) لحق (بسطيانس) بملك الخزر مستنجداً به وتزوج هناك فلم يرعندهم مايجب فصار الى طوفلا ملك برجان ٠٠٠٠ وقد كان شرط لطوفلا ملك برجان اذا رجع الملك اليه ان يحمل اليه في كل سنة خراجاً وكان يفعل ذلك ٠٠٠

وقال (في ص ١٦٨) وكان مقتل تقفور في حرب كانت بينه وبين برجان في سنة ١٩٣ وقد اتينا على اخباره مع الرشيد وحروبه ابرجان وقتلهم اياه ٠

وقال (في ص ١٨٣) « وقد ذكر » خبر السور المسمى بالرومية مقرون بئسفس بذلك السور الطويل الحاجز بين بلاد برجان وبين البنود الحمسة التي وراء القسطنطينية ٠٠ وقال « في ص ١٨٤ » وقرب من هذا الجبل « جبل القبق » من الامم كاللان والسرير والخزر وجرزان والابخاز والصنارية وكشك والكاسكية وغيرهم والابر وبرجان والروس والبرغر والافرنجة والصقالبة ٠٠

وقال « في ص ١٩١ » ومن جاورهم (اي الروم) من الممالك : من برجان والابر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم ٠٠٠

وقال (في ص ١٩٦) « وقد ذكرنا » ماجرى بين الروم وبرجان والبرغر والترك وغيرهم من الوقائع المشهورة والحروب المذكورة ٠٠

وقال المهرودي في كتابه الآخر مروج الذهب : (٢ : ١٦٠ طبعة باريس) « وشن الغارات (اي ملك البرغر يريد البلغار) حولها (اي حول القسطنطينية) الى بلاد رومية والاندلس وارض برجان والجلالقة والافرنجة ٠٠٠ » وقال (في ص ٣١١ من ذلك الجزء) ٠٠٠ وقد كان له (اي لقسطنطين الملك) في بنائها خبر طريف مع بعض ملوك برجان خلوف دخله من بعض ملوك آل ساسان ٠٠٠ وقال (في ص ٣١٤) وكان السبب في دخول قسطنطين بن هلافي في دين النصرانية والرغبة فيها ان قسطنطين خرج في بعض حروب برجان اوغيرهم من الامم فكانت الحرب بينهم سمجالات نحواً من سنة ٠٠٠ وقال (في ٦٦٣ : ٣) الافرنجة والصقالبة والنوكبرد والاشبان والياجوج والماجوج

والترك والخزر وبران واللان والجلالة... وقال (في ص ٧٨) ولربما اجتمع عليهم (على اهل الاندلس) من الام من ولد يافث من الجلالة وبران وفرنجة وغيرها من الالسن... وقال «في ٣٨:٤» عمل الترك لخانان سبع مائة فرسخ في خمسمائة... اي طوله... وعرضه... عمل الخزر واللان سبع مائة فرسخ في خمسمائة فرسخ... عمل برجان ألف وخمسمائة فرسخ في ثلثمائة فرسخ... عمل الصقالبة ثلاثة آلاف وخمسمائة فرسخ في سبعمائة فرسخ... وقال «في ١٣٤:٧» وفي هذه السنة وهي سنة ٢٢٣ خرج توفيل بن ميخائيل ملك الروم في عساكره معه ملوك برجان والبرغر والصقالبة وغيرهم ممن جاورهم من ملوك الامم حتى نزل مدينة زبطرة من الثغر الخزري ففتحها بالسيف...

وقال ابن رسته: الاقليم السادس يبتدي من المشرق ويمر على بلاد ماجوح ثم على على بلاد الخزر فيقطع بحر طبرستان الى بلاد الروم فيمر على جرزات واماسيا وهرقلة وخطايذون والقسطنطينية وبلاد برجان وينتهي الى بحر المغرب.

الاقليم السابع يبتدي من المشرق من شمال ماجوح ثم يمر على بلاد الترك ثم على سواحل بحر طبرستان مما يلي الشمال ثم يقطع بحر الروم فيمر ببلاد برجان والصقالبة وينتهي الى بحر المغرب.

واما ما وراء هذه الاقاليم الى تمام الموضع المسكون الذي عرفناه فانه يبتدي من المشرق من بلاد ماجوح ثم يمر على بلاد التفرغز وارض الترك ثم على بلاد اللان ثم على البر ثم على برجان والصقالبة وينتهي الى بحر المغرب.

وقال في موضع آخر: ومن هذه المدينة (اي رومية) تركب البحر فتسير ثلاثة اشهر حتى تنتهي الى بلاد ملك برجان وتسير منها في جبال وعقاب شهراً واحداً حتى تنتهي الى بلاد فرنجة... اهـ.

وقال ياقوت: برجان بالجم. بلد من نواحي الخزر. قال النجمون: هو في الاقليم السادس وطوله اربعون درجة وعرضه خمس واربعون درجة وكان المسلمون غزوه في ايام عثمان رضي... اهـ.

وقال البلخي في كتاب البدء والتاريخ (٦٤:١) سمعت قوماً من برجان يسمونه (اي الله) ادفوا. فسألهم عن اسم الصنم فقالوا: فغ... وقال (في ٢٦:٣) فنهزم (من اولاد يافث) الترك والخزر والصقالبة وبران واشبان وياجوج وماجوج سنة وثلاثون لساناً... وقال (في ٥٣:٤) الاقليم السادس: يبتدي من المشرق فيمر على

بلاد باجوج وماجوج ثم على بلاد الخزر ثم على وسط بحر جرجان الى بلاد الروم فيمر على جرجان وهرقلة وقسطنطينية وبلاد برجان الى بحر المغرب . قال اهل هذا العلم : اما ماوراء هذه الاقاليم الى تمام الموضع المسكون الذي عرفناه فانه يبيد من المشرق من بلاد باجوج وماجوج فيمر على بلاد التفرغز وارض الترك وعلى بلاد اللان ثم على بلاد برجان ثم على شمال الصقالبة الى ان ينتهي الى بحر المغرب . « اه »

وقال ابو الفداء في تقويم البلدان : برشان بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملية وفتح الشين المعجمة ثم الف ونون في الآخر . ويقال لها ايضا برجان بالجيم . كانت قاعدة البلاد . قال ابن سعيد : و برشان كانت قاعدة الامة الذين يقال لهم برجان وكان لهم شهرة وبأس في قديم الزمان فاستولت عليهم الالمانية وبادوهم حتى لم يبق منهم احد ولا بقي لهم اثر . « اه »

وقال القرماني : برجان بلاد غائصة في جهة الشمال فيها قصر النهار الى اربع ساعات والليل الى عشرين ساعة وبالعكس واهلها بحوس . « اه » وقال عن بلغار : مدينة عظيمة (كذا والمراد هنا قاعدة البلغار) على ساحل بحر مانطس مبنية من خشب الصنوبر وسورها من خشب البلوط . وسورها من ام الترك ما لا يعد ولا يحصى . والبرد عندهم شديد جداً لا يكاد الثلج ان ينقطع عن ارضهم صيفاً وشتاءً . « اه »

وقال ابن الاثير في (٢٨٥ : ١ من طبعة مصر) ومن ولد يوان (والاصح يوان بالمشاة المختصة) الصقالبة وبرجان والاشبان كانوا في القديم بأرض الروم قبل ان يقع فيها من وقع من ولد العيص بن اسحق وغيرهم . وقال (في ١١٦) ثم ملك اسطينان (اي أسطينانس او إسطينيان) المعروف بالآخرم تسع سنين ايام عبد الملك ثم خلعه الروم وخرموا انفه وحمل الى بعض الجزائر فهرب ولحق بملك الخزر واستنجد فلم ينجده فانتقل الى ملك برجان . ثم ملك بعده لونطش ثلاث سنين ايام عبد الملك ثم ترك الملك وترهب . ثم ملك السمين المعروف بالطرسومي سبع سنين فقصده اسطينان واهل برجان وجرى بينهما حروب كثيرة وظفر به اسطينان وخلعه وعاد الى ملكه فكان ذلك ايام الوليد بن عبد الملك واستقر اسطينان وكان قد شرط لملك برجان ان يحمل اليه خراجاً كل سنة فعسف الروم وقتل بها خلقاً كثيراً فاجتمعوا عليه وقتلوه فكان ملكه الثاني ستين ونصفاً . « اه » وقال (في ص ١١٧) وجرى بين نقفور وبين برجان حرب سنة ١٩٣ فقتل فيها « اه » . « اه » وقال (في ص ١٥٤) عن كسرى انوثروان عاد الى

المدائن وغزا البرجان ثم رجع وارسل جنده الى اليمن « ١٠٠ هـ ثم قال (في ص ١٥٥) وقوي امره (اي انوشروان) وغزا فرغانة والبرجان وعاد فبنى مدينة الشابران « ١٠٠ هـ وقال (في ص ١٠ : ٥) وفي هذه السنة (اي ٩٨) فتحت مدينة الصقالبة وكان برجان قد اغار على مسلمة بن عبد الملك وهو في قلة فكتب الى سليمان يستدع فأمده فمكرت بهم الصقالبة ثم انهزموا « ١٠٠ هـ »

وانت ترى ان ما نقلناه هنا عن ابن الاثير يكاد يكون نص الطبري بعينه . ومثل هذين النصين كلام ابن خلدون فهذا تضرب صفحا عن ذكره . والى هنا ايضا انتهى ما جمعناه من كتب اشهر المؤرخين واهل التخطيط وان كان ثم غير هؤلاء الا انهم يعدون من النقلة لا من المصنفين الاصيلين . وهذا يدل على سبب عدولنا عن ذكر نصوصهم لاستغنائنا عنهم باقوال الكتاب الاقدمين اصحاب القدم الراسخة في هذا الموضوع

٢٠ القسم الثاني نصوص لغويي العرب

قال الفيروز ابادي في القاموس : برجان كعثان : جنس من الروم . « وزاد السيد المرتضى في تاج العروس : « يسمون كذلك قال الاعشى :

وهراقل يوم ذي سائذ ما من بني برجان في الباس رجع
يقول : هم رجع على بني برجان اي هم ارجح في القتال وشدة البأس منهم « ١٠٠ هـ . وهذا الكلام كله هو نص ابن منظور بحرفه . وقد اخذه المرتضى عنه ولم يبه عليه . وقال ابن الوردي : البرجان امة بل ام طاغية مثلثون . بلادهم متوغلة في الشمال وسيرهم منقطعة لبعدهم عنا وجفاء طباعهم « ١٠٠ هـ .

وقال في المغرب للجواليقي : برجات . اسم اعجمي وقد تكلم به العرب قال الاعشى : « من بني برجان في الناس رجع . « وقال الجوهري في الصحاح :

« وهرقلاً يوم ذي سائذ ما من بني برجان ذي الباس رجع . « ولم يزد على هذا القدر مع اختلاف الرواية بينه وبين صاحب اللسان والتاج . وقال المطرزي في المغرب : برجان جنس من الروم بلادهم قرية من القسطنطينية وبلاد الصقالبة قرية منهم .

وقال صاحب الاوقيانوس : برجان علكى وزن عثمان اسم جنس من الروم وفي كتاب المغرب للمطرزي (ما ذكرناه آنفاً) وفي كتاب الخريدة لابن الوردي (ما نقلناه فويق هذا) ثم قال : وعليه فيؤخذ من هذا الكلام وعن سائر ماورد في كتب تخطيط البلدان ان برجان وبغدان هما بلاد وجيل معروفان بكونان وراء نهر الطونة . فمن المحتمل اذاً ان تكون كلمة برجان مربة عن بوجاق (كذا) ويراد ببوجاق البلاد المعروفة باسم بسرائية) بل ولعل الارجح ان تكون برجان تعريب ببغدان . اهـ تعريباً

ومن الغريب ان القلقشندي الذي وضع كتاباً في الانساب وذكر انساب كثير من الاجيال والامم والشعوب لم يتعرض لذكر البرجان . ومن اغفل التنويه بهم سائر اللغويين من العرب كصاحب الجهرة وتهذيب اللغة والمحيط والمجلد والمختص والمحكم والجامع لديوان العرب والعباب واساس البلاغة والمصباح المنير ومجمع البحرين ومطلع الثيرين والبابوس الى آخر ما هناك .

واما صاحب محيط المحيط اي البستاني فانه نقل كلام المطرزي ولم يصرح باسم المنقول عنه . وصاحب اقرب الموارد لم يذكر البرجان بمعنى هذا الجبل من الناس . وتقف عند هذا الحد من ذكر نصوص اللغويين .

القسم الثالث رأي مستشرقى الافرنج

ذهب اغلب المستشرقين الى ان المراد بالبرجان : البلغار . وهذا لا يمكن ان يكون صحيحاً البتة كما سنثبت في ذيل هذا القسم . على ان بعضاً منهم اتفقوا الى ما في هذا التوحيد بين اللفظين من الغرابة والبعد لرويتهم كثيرين من كتاب العرب جمعوا في عبارة واحدة بين البرجان والبلغار وميزوا بين الجبلين تمييزاً بينا فاستنتجوا ان القوم ليسوا بواحد بل هما اثنان وان كانا في اغلب الاحايين متخالفين متفقين في الهجوم والدفاع وفي القتال والفرار .

على ان بعض الافرنج ذهبوا الى ان المراد بالبرجان في بعض عبارات الكتاب من العرب قوم يكونون في افرنجة (افرنسة) وهم المعروفون باسم البرجون او البرغون اي هم المعروفون باللغة الفرنسية باسم Bourguignons وهم محقون في ذلك . مثلاً ما قال السعودي في عبارته (في ١٦ : ٢) وفي عبارته (في ٧٨ : ٣) فلا شك ان المراد بالبرجان

هناك البرجون والبرقون . وهذا النصيف قريب من البرجان فظن المؤلف الاول او ناسخ الكتاب ان البرجون والبرجان شي واحد . والحال : ان الامر على خلاف ما يظن وان كان بين اللغطين تناسب في الاشتقاق . ولهذا فقد اصاب الغاضل بريه دميثار Barbir de meynard حينما ذكر هذه العبارة : « وبشن الغارات حولها الى بلاد رومية والاندلس وارض برجان والجلالفة والافرنجة » ان المراد بهؤلاء البرجان : Les Bourguignons لكنه لم يصب في قوله انهم البلغار في كلام المسعودي في ٦٦:٣ و ٧٨:٣ ثم ١٣٤:٤ ثم ٣٨:٤ فلو ذكرهم باسمهم البرجان كما فعل في ٣١:٢ و ٣١:٥ لكان اولى له ولهذا فقد اصاب في مواطن واخطأ في مواطن أخرى .

واما العلامة دي كوي M. J. de Goeje فانه لم ينقل الى اللاتينية اسم البرجان كل مرة وردت في الطبري . ولما في ترجمته لكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة فانه نقلها الى لفظة بلغار Bulgares في ص ٥٩٢ . ٥٧١ . ٢٥٧١ . واما في ٢٥٧١ و ٢٥٧٢ فقد ابقاها على لفظها « برجان » . كأنه قد اكتفى بما المع اليه وبان المراد من البرجان « البلغار » .

وقد صرح فريتاغ انه لا يعرف على التحقيق من هم هؤلاء المعروفون باسم البرجان . على انه في الآخر ذهب الى ان قولهم : اسرق من برجان « يراد بهم هؤلاء الاقوام . وقد قال في مستهل كلامه عن البرجان : برجان اسم لص اصوص . وقد تابعه في هذا الوهم قزميزكي . وقد وهم كلاهما . فان اللص المشهور بـ . برجان هو غير جيل البرجان فاللص برجان كان من ناحية الكوفة . صلب لسرقته فسرق وهو مصلوب . وذلك انه قال لحافظه « مر الى تلك الخربة فان لي فيها مالا وانا احفظ برذونك . فلما غاب عنه قال لواحد من : « اخذ البرذون فهو لك » . (راجع فرائد اللآل في مجمع الامثال ١: ٢٩٣) واما برجان الآخرون فهم اقوام يجاورون البلغار وليسوا بهم . وكانوا اهل غزو لاصوصا شأن سائر الناس في غير العصور قبل العمران الحديث . ولهذا فقول فريتاغ وقزميزكي انهم من اللصوص وهم ظاهري وخبيث بين فليحفظ . هذا فضلا عن انك لا ترى واحدا من ابناء العرب ذهب الى ان اللص برجان هو من قوم البرجان . او ان البرجان هم من اللصوص ومنه قولهم « اسرق من برجان » كقولهم هم اسرق من قوم برجان .

والظاهر ان اول مستشرق ذهب الى ان البرجان هم البلغار العلامة كانزميز في الكتاب الذي نشره في باريس لمؤلفه رشيد الدين وترجمه الى اللغة الفرنسية مع

حواش نفيسة نزري بعقود الجمان . وقد رأيت هذا الكتاب مراراً عديدة في مكتبة الحاج علي الآلوسي من مبعوثي بغداد . وهو اليوم في الاستانة ومكتبته مغفلة لا يدخلها داخل ولو كان من اخص اقرائه . ولما كان مقام كاترمير من ارفع المقامات في العلم تابعه الكثيرون اعتماداً عليه . والبائن ان العلامة رينو *Beinaud* في ترجمته لكتاب تقويم البلدان تأليف ابي الفداء لم يقطع كل القطع برأي وطنيه كاترمير لانه ابقى كلمة برجان على حالتها في ص ٢٨٣ من الجزء الاول من المجلد الاول وفي ص ٣١٣ من ذلك الجزء بعينه ثم قال مامعربه : « الظاهر كلمة « برجان » تعني بعض الاحيان « البلغار » المجاورين لنهر الطونة . راجع حواشي المسيو كاترمير على كتاب تاريخ رشيد الدين ص ٤٠٥ وراجع ايضاً تصنيف المسيو دوصون في كلامه عن اقوام جبل قاف ص ٢٦٠ ومن المرجح ايضاً ان هذا الاسم يشمل الابري والمرب . اه كلام رينو

فانت ترى انه لايجزم بصحة هذا القول كل الجزم بل يذكره بكل تحفظ وتحذره لانه رأى انه اذا صح هذا التأويل في مواضع فهو لا يصح في عدة مواطن

واما اقوى براهين كاترمير على ان البرجان هم البلغار المجاورون لنهر الطونة هو هذا على ما تذكر : « بقول المسعودي ان يستينان الثاني المشهور بالاخرم لاذ بتوافيل ملك البرجان والحال ان كتيبة اليونان يذكرون ذلك عن ملك البلغار اذن البرجان هم البلغار » اه كلام العلامة محصلاً بمعناه . فاقول : نص المسعودي هو هذا : « وفي هذه السنة وهي سنة ٢٢٣ خروج توفيل بن ميخائيل ملك الروم في عساكره ومعه ملوك برجان والبرغار والصقالبة وغيرهم » فيتضح من هذا الكلام ان البرجان غير البرغار او البلغار والا لما فرق بين اللغتين بل انهم قوم مخالفون للبرغار كما كان الصقالبة مخالفين لهم ايضاً واكتفاء اليونان بذكر البرغار فقط لا يدل على انه لم يكن معهم برجان وصقالبة بل انما ذهبوا الى ذكر البلغار اما لكثرتهم واما لشهرتهم واما لانهم اذا ذكروا البلغار فهم قراء اولئك الزمان حلفاء البلغار ايضاً البرجان والصقالبة او لعل هناك سبباً آخر لا يصل الى معرفته عقلنا القاصر .

وعلى كل حال فان كلام المسعودي صريح كل الصراحة ان البرجان قوم كانوا مع البلغار وليسوا اياهم . بل هم الذين نعيمهم في كلامنا الآتي

واما آراء سائر المستشرقين فلا حاجة الى ذكرها لانه اذا كان مقدموهم وزعماءهم على هذا التأويل فلا يبعد تأويل من جاء بعدهم واخذ عنهم بعداً يذكر ومن ثم نكون

أراؤهم منحصرة في ثلاثة تأويل: فالأغلب يذهب الى انهم والبلغار جيل واحد منهم من يقول بان البرجان في بعض المواطن تفيد البرجون او البرغونيين والطائفة الاخرى تبقى اللفظة على وجهها لانها لم ترها موافقة لمعنى البلغار

على ان هناك مذهبا رابعا بل وخامسا لا ينسب او ينسبان الى واحد من المستشرقين بل الى عالم جليل من علماء الاتراك ولغو يهيم اريد به عاصم افندي صاحب الاوقيانوس ومترجم القاموس فانه يظن ان البرجان تعرب بوجاق ويرجع عليه كون اللفظة تعرب بغدان وكلا اللفظين وان كانا يتقاربان في الكتابة الا انهما يتعدان كل الابتعاد في النطق والتلفظ هذا فضلا عن ان ابدال الحروف وسننه لا توافق كل الموافقة هذا التصحيف البعيد الوقوع الا بتكلف وتعمل واعبات لا إغناات وراه

٤ خاتمة النبذة وفيها ذكر رأينا

من قرأ بترو وتدير ما كتبناه الى هنا وانعم النظر في الشواهد التي نقلناها عن كسبة العرب على اختلاف عصورهم يحكم حكما باتا بان البرجان غير البلغار وبالعكس واليك خلاصة ما قاله العرب عنهم مجموعة هنا :

البرجان جيل من الناس بلادهم غائصة في جهة الشمال في قصر النهار الى اربع ساعات والليل الى عشرين ساعة . وبالعكس . واهلها مجوس طغاة بغاة قساة وسيرهم منقطعة عنا لبعدهم وجفاء طباعهم . وقد تنصروا في عصور النصرانية الاولى بعد ان غادروا بلادهم واقاموا بجوار البلغار من جهة وبقرب الصقالبة من الجهة الاخرى وكانوا تارة مهادنين للبلغار ومواليهم ومحالفهم وطورا اعداءهم وهاجمين عليهم وغازين ايامهم . شأن الجار للجار . فهذا كله لا يصح الا على الامة المعروفة هذا الانفرنج باسم Varègues ويقال فيها عندهم Varangien او Variaguer كما ان العرب اخذوا هذه اللفظة عن اليونان وهم يكتبون الفاء الفارسية المثلثة الفوقية بآ مرحدة تخفية سهل سبب تعاقب الفاء والباء . والكلمة هي في الاصل Varg ومعناها «المنفي» او «الافاق» ثم توهموا فيها الافراد كما هو الامر حقيقة فجمعوها على فعلان فقالوا فيها «برجانا» كما قالوا في جمع ظهر «ظهر انا» .

والبرجان على التحقيق قوم افاقون اصل اقليهم من اسكندريانة ثم انضم اليهم اناس آخرون من عناصر اخرى كالروس والصقالبة والأبر والسرب والبلغار فاجتمع

منهم امة قائمة بنفسها فاثبتها الالمانيون فافتوها عن آخرها .

هذا ماظهر لنا على وجه التحقيق بعد ان طالعنا عدة مؤلفات عربية وافرنجية
وبعد ان وقفنا على آراء بوغودين Logodine وشلوتز Schuetzer
وجديونوف Gédéonov وكستوماروف Kostomarow وهوفانسكي
Hovansky وآمي بوه Ami Boué وكاتس Kanitz وليجه
Léger ودلافلي Ed. Laveleye وغيرهم .

وان كان لواحد من القراء ما يهدم رأينا فمعول برأيهنه قليلاً ثابته ونحن له من اعظم
الشاكركين لان غايتنا البحث عن الحقيقة لا التمسك برأينا ففى ما رأينا وجهها العريض
نسير لجمال بضيائه . وقفنا الله الى ما به كل خير بغداد : ساتسنا

الفتوى في الاسلام

« لثمة ماورد في الجزئين الماضيين »

(حاجة المفتين الى معرفة العلوم الرياضية)

ان هذه العلوم الجليلة — الرياضية — كان عني بها من سلفنا واثمتنا من لا يزال اسمه
كالبدر في الساعات وثله وآثاره مرجعاً لحل العويصات مثل الحافظ بن حبان صاحب
الصحيح وحجة الاسلام الغزالي وفخر الدين الرازي وولي الدين ابن خلدون والامام
ابن رشد وسيف الدين الآمدي والحارثي وابن عبد ربه وابن الملاح وابي الصلت
الداني الاندلسي والرشيد بن الزبير الاسواني والمبشر بن فائق الاموي والشيوخ السويدي
والفخر الفارسي والنظب المصري والموفق عبداللطيف البغدادي وابن البيطار وافضل
الدين الطنجي وشمس الدين الاصمغاني وابن النفيس والفطرب الرازي والسيد الشريف
الجرجاني وسعد الدين التفتازاني وبدر الدين ابن جماعة وقاضي القضاة الهروي وعلاء
الدين البخاري وشهاب الدين ابن المدي والقي السبكي ومن لا يحصى من الائمة كما تراء
في طبقات الحكماء وفي حسن المحاضرة للسيوطي وسواهما من توارىخ الاعلام ووفيات
الاعيان وكثر من كان فيهم من الفضلاء والحفاظ والرواة والمتكلمين والمفتين العدول
الثقات ولو ضم اليهم غيرهم ليبلغ مجلدات

كل من عني بهذه العلوم — الرياضية — علم ميسر الحاجة اليها وادرك موضع الكمال منها فراح يضرب منها بسهم ويخوض منها في بحر

تخلل كتب الفقه مالا يخصص من فروع هذه العلوم وكم توقف القضاء والافتاء في التوازل على الامام بهذه الفنون

ليس تحرير سمت القبله يتوقف على معرفة اصول فن الميقات وكذا تحرير اوقات الصلوات في البلاد على معرفة عروضها واطوالها المقررة في علمها

وكذلك حسم المنازعات في مساحة قطع الارض او مقادير السقيما من الانهار او الدمن يتوقف على فن الهندسة والمقاييس

وهكذا الثقافي في وقف على بلد من بلاد دولة من الدول معينة اترتب في كون تلك البلد من حوزتها وحدودها يتوقف على علم الجغرافيا (تقويم البلدان) فمنه يعلم دخولها في شرط الواقف او عدم دخولها

وهكذا اتفق من المحققين غير واحد ان لمن له معرفة بعلم هيئة الفلك ان يعمل بحسابه في صوم رمضان والفطر منه بل اتفق نبي الدين السبكي لما كان قاضي القضاة بدمشق في رسالة سماها (العلم المنشور في اثبات التهور) ان من شهد بروية الهلال في رمضان او ذي الحجة مثلا ودل الحساب على انه لا يمكن رؤيته ان تلك الشهادة ترد (قال) لان قبول الشهادة انما هو عند عدم الرية ووجود الاحتمال اما مع القطع باستحالة الروية للبرهان الجلي في ذلك فلا تثبت تلك الشهادة وتحمل على الغلط او الكذب (قال) لانه اقوى من الرية لانه مستحيل عادة ، وبين رحمه الله في هذه الرسالة ما يجب على القاضي من التثبت في ذلك وما ينبغي له من الامام بعلم الهيئة والميقات او تقليد من يثق به في ذلك ليكون على بصيرة مما يقبل من الشهادة في ذلك او يرد

ورسالة هذه من انفس الرسائل المفضون بها

وبالجملة فاجابات الفنون الرياضية في الاقضية والاحكام وفي العبادات والمعاملات اوسع من ان بدخلها الحصر ولا غنى للقاضي والمفتي عن الامام بها كما اوضحنا

(تحري المفتي في مسائل الطلاق المجمع عليه والاقوى دليلا)

مما يجب على كل مفت — بمعنييه الخاص والعام — ان يتحري ويتروى ويحتاط في مسائل الطلاق ما اجم على وقوعه او قوى الدليل فيه معقولا او منقولاً واما التسرع

بالفتوى بحل العصمة لمجرد قول غير مجمع عليه او المدرك في سواء او قول الصحب والتابعين رضوان الله عليهم على خلافه — هذا التسرع من الامور التي جرت الويلات على كثير من العائلات وكما افضت الى التحيل بما لا يرضاه الشارع ولا يلتقي مع اصول مائته السجاء ، ومن العجيب ان صور الحلف بالطلاق وانواع التعاليق فيه التي افردت لها تأليف خاصة وانعمت بطون الاسفار لا ترى منها مسألة مرفوعة الى النبي صلى الله عليه وسلم ولا واقعة مأثورة عن الصحب رضوان الله عليهم لانها مما حدثت بعد قال شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية في بعض فتاويه ^(١) لما احدث الحجاج بن يوسف تخليف الناس بايمان البيعة وهو التخليف بالطلاق والعناق والتخليف باسم الله وصدقة المال وقيل كان معها التخليف بالحج تكلم حينئذ التابعون ومن بعدهم في هذه الايمان وتكلموا في بعضها على ذلك فمنهم من قال اذا حث بها لزمه ما التزمه ومنهم من قال لا يلزمه الا الطلاق والعناق ومنهم من قال بل هذا من جنس ايمان اهل الشرك لا يلزم بها شيء ومنهم من قال بل هي من ايمان المسلمين يلزم فيها ما يلزم في سائر ايمان المسلمين واتبع هؤلاء ما نقل في هذا المجلس عن الصحابة وما دل عليه الكتاب والسنة (قال) كما بسط في موضع آخر

وبالجملة فاهم مسائل الطلاق الآن مسألة الحلف به وبالحرام . والتعليق عليه . وطلاق السكران . وطلاق الغضبان . وجمع الثلاث في كلمة دفعة واحدة . والطلاق في الحيض . ويندرج تحت كل صرر شتى يرى الواقف على مذاهب السلف فيها اقوالاً وفتاوى عديدة وقد أسلفنا ما اتفق عليه كلام المحققين من وجوب القوي في المسائل المختلف فيها وبذل الوسع في مسألة القولين لترجيح احدهما

ومما يبين المغني على الترجيح الصحيح مراجعته الكتب التي جمعت اقوال السلف في هذه المسائل وهي المحلى لابن حزم وفتاوى ابن تيمية وكتاب اقامة الدليل على بطلان التحليل له ايضا واغاثة اللفهان الكبرى لابن القيم واغاثة اللفهان الصغرى في طلاق الغضبان لابن القيم ايضا وزاد المعاد له ايضا وكذلك مراجعة كتب النوازل في فقه المالكية ومطولات كتب اصحاب الائمة نفعنا المولى بعلومهم والواقف عليها يجد من سماحة الاسلام ويسر الدين ورفع المخرج في هذا الباب ما يجعله كله السنة تنطق بحمده تعالى على هذه الرحمة

(حكم تولية طالب الافناء)

هذا الحكم يعلم بالاولى مما ذكره في القضاء ومن احسن ما كتب فيه ما قاله الامام الماوردي — من كبار ائمة الشافعية — في كتابه الاحكام السلطانية وعبارته :

فاما طلب القضاء وخطبة الولاية عليه فان كان من غير اهل الاجتهاد فيه كان تعرضه لطلبه محظوراً وصار بالطلب مجروحاً

وان كان من اهل علي الصفة التي يجوز معها نظره فله في طلبه ثلاثة احوال (احدها) ان يكون القضاء في غير مستحقه اما لنقص علمه واما لظهور جوره فيخطب القضاء دفعاً لمن لا يستحقه ليكون فيمن هو بالقضاء احق فهذا سائق لما تضمنه من دفع منكر ثم ينظر فان كان اكثر قصده ازالة غير المستحق كان مأجوراً وان كان اكثر اختصاصه بالنظر فيه كان مباحاً

(والحالة الثانية) ان يكون القضاء في مستحقه ومن هو اهله ويريد ان يعزله عنه اما لعداوة بينهما واما ليحرج بالقضاء الى نفسه نفعاً فهذا الطلب محظور وهو بهذا الطلب مجروح (والحال الثالثة) ان لا يكون في القضاء ناظر وهو خال من وال عليه فيراعي حاله في طلبه فان كان حاجته الى رزق القضاء المستحق سيفي به المال كان طلبه مباحاً وان كان رغبة في اقامة الحق وخوفه ان يتعرض له غير مستحق كان طلبه مستحباً فان قصد بطلبه المباحة والمنزلة فقد اختلف في كراهية ذلك مع الاتفاق على جوازه فكرهته طائفة لان طلب المباحة والمنزلة في الدنيا مكروه قال الله تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »

وذهبت طائفة اخرى الى ان طلبه لذلك غير مكروه لان طلب المنزلة مما ابيع وقد رغب نبي الله يوسف عليه السلام الى فرعون في الولاية فقال « اجعلني على خزائن الارض افي حفيظ عليم » نطلب الولاية ووصف نفسه بما يستحقها به من قوله « افي حفيظ عليم » وفيه تأويلان (احدهما) حفيظ لما استودعني عليم بما وليتني وهذا قول عبد الرحمن بن زيد (والثاني) انه حفيظ للحساب عليم بالالسن وهذا قول اسحق بن سفيان وخرج هذا القول عن حد التزكية لنفسه والمدح لها لانه كان لسبب دعاياه انتهى

(اشتراط علم الولي باعلية من يوليه لصحة التولية)

قال الامام الماوردي : تمام الولاية معتبر باربعة شروط (احدها) معرفة المولي للمولي

بانه على الصفة التي يجوز ان يولى معها فان لم يعلم انه على الصفة التي تجوز معها تلك الولاية لم يصح تقليده (والشرط الثاني) معرفة المولى بما عليه المولى من استحقاق تلك الولاية بصفاته التي يصير بها مستحقاً لها وانه قد تقلدها وصار مستحقاً للاستئابة فيها ثم ذكر ثمة الشروط في تولية القضاء مما يدل على اعتبارها فيها هو دون تولية القضاء من الافناء والتدريس والوعظ والارشاد والخطابة والامامة بالأولى والله در المستوعر الاكبر في قوله

وما سقطت يوماً من الدهر امة من الدل الا ان يسود دميمها
اذا ساد فيها بعد ذل لثيمها تصدى لها ذل وقد ادعىها
وما قادها للغير الا بحرب عليم باقبال الامور كرميمها
وما كل ذي لب يعاش بفضلها ولكن لتدبير الامور حكيمها

وبالجملة فاعطاء كل ذي حق حقه ووضع الاشياء في مواضعها وتقويض الأعمال للقادرين عليها مما يوجب صيانة الحق ويشيد بناء العدل ويحفظ نظام الامور من اخلل ، ويشفي نفوس الامة من العلل ، وهذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والارض وثبت بها نظام كل موجود ، وكل من تتبع نواحي الامم وكان بصير القلب علم انه ما انقلب عرش مجدها الا لتفويض الأعمال لمن لا يجنب القيام عليها ويضع الاشياء في غير مواضعها « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »

(حكم الاشتراط في الفتوى ان تكون على مذهب معين)

يستفاد هذا مما اوضحه الامام الماوردي في الاحكام السلطانية في القضاء (قال) : ويجوز لمن اعتقد مذهب الشافعي رحمه الله ان يقلد القضاء من اعتقد مذهب ابي حنيفة لان للقاضي ان يجتهد برأيه في قضاؤه ولا يلزمه ان يقلد في النوازل والاحكام من اعتزى الى مذهبه . فاذا كان شافعيًا لم يلزمه المصير في احكامه الى اقوليل الشافعي حتى يؤديه اجتهاده اليها ، فان اداء اجتهاده الى الاخذ بقول ابي حنيفة عمل عليه واخذ به

وقد منع بعض الفقهاء من اعتزى الى مذهب ان يحكم بغيره لما يتوجه اليه من التهمة والمائلة في القضاء والاحكام واذا حكم بمذهب لا يتبعه كان انفي للتهمة وارضى الخصوم

(قال الماوردي) وهذا وان كانت الرئاسة تقتضيه فاحكام الشرع لانوجه « لان التقليد فيها محذور والاجتهاد فيها مستحق »

« ثم قال » : فلو شرط المولي وهو حنفي او شافعي على من ولاء القضاء ان لا يحكم الا بمذهب الشافعي او ابي حنيفة فهذا على ضربين « احدهما » ان يشترط ذلك عموماً في جميع الاحكام فهذا شرط باطل سواء كان موافقاً لمذهب المولي او مخالفاً له ، واما صحة الولاية فان لم يجعله شرطاً فيها واخرجه مخرج الأمر او مخرج النهي وقال : قد قلدتك القضاء فاحكم بمذهب الشافعي رحمه الله على وجه الأمر او لا تحكم بمذهب ابي حنيفة على وجه النهي كانت الولاية صحيحة والشرط فاسداً سواء تضمن أمراً أو نهياً ، ويجوز ان يحكم بما اداء اليه اجتهاده سواء وافق شرطه او خالفه

فان اخرج ذلك مخرج الشرط في عقد الولاية فقال قد قلدتك القضاء على ان لا تحكم فيه الا بمذهب الشافعي او يقول ابي حنيفة كانت الولاية باطلة لانه عقدها على شرط فاسد ، وقال اهل العراق نصح الولاية ويبطل الشرط ثم ذكر الضرب الثاني وفصل فيه فانظره وقال الامام ابو زيد الدبوسي — من اكابر اصحاب الامام ابي حنيفة رحمه الله — في كتاب تقويم الادلة في اوخر باب الاستحسان : وكانت الناس في الصدر الاول اعني الصحابة والتابعين والصالحين رضوان الله عليهم اجمعين ينون امورهم على الحجة فكانوا يأخذون بالكتاب ثم بالسنة ثم باقوال من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصح بالحجة فكان الرجل يأخذ بقول عمر رضي الله عنه في مسألة ثم يخالفه بقول علي رضي الله عنه في مسألة اخرى ، وقد ظهر من اصحاب ابي حنيفة رحمهم الله انهم وافقوه مرة وخالفوه اخرى على حسب ما نصح لهم الحجة . لم يكن المذهب في الشريعة عمرياً ولا علويّاً بل النسبة كانت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانوا قروناً اثني عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير فكانوا يرون الحجة لاعلامهم ولا تقوسهم فلما ذهب التقوى من عامة القرن الرابع وكسوا عن طلب الحجج جعلوا علماءهم حجة واتبعوهم فصار بعضهم حنفياً وبعضهم مالكيّاً وبعضهم شافعيّاً ينصرون الحجة بالرجال وينتقدون الصحة بالبلاد على ذلك المذهب ثم كل قرن اتبع عنه كيفما اصابه بلا تمييز حتى تبدلت السنن بالدع فضل الحق بين المولاه ككلام الامام ابي زيد واليحيى مقدمة مدهشة فليرجع اليها وقد نقل نخباً من ذلك شيخ الصوفية محيي الدين ابن عربي في الباب الثامن عشر وثلاثمائة من الفتوحات المكية في معرفة منزل نسخ الشريعة

المحمدية وغير المحمدية بالاغراض النفسية عافانا الله واباك من ذلك فليتدبر من يحب الانصاف

(الحسبة على المفتين وامثالهم)

قال الحافظ ابو بكر الخطيب البغدادي : ينبغي للامام ان يتصنع احوال المفتين فمن صلح للفتيا اقره ، ومن لا يصلح منعه ونهاه ان يعود وتوعده بالعقوبة ان عاد ، وطريق الامام الى معرفة من يصلح للفتوى ان يسأل علماء وقته ويعتمد اخبار الموثوق بهم انتهى

وقال الامام الماوردي في الاحكام السلطانية : واذا وجد - المحتسب - من يتصدى لعلم الشرع وليس من اهله من فقيه او واعظ ولم يأمن اغترار الناس به في سوء تأويل او تحريف انكر عليه التصدي لما هو ليس من اهله واظهر امره لثلاثا بفقره

وقال ابن القيم : من افنى الناس وليس باهل للفتوى فهو آثم عاص ومن اقره من ولاية الامور على ذلك فهو آثم عاص قال ابو الفرج ابن الجوزي : ويلزم ولي الامر منعهم وهو لاء بمنزلة من يدل الركب وليس له علم بالطريق وبمنزلة من لا معرفة له بالطب وهو يطب الناس بل هو لاء اسوأ حالا من هو لاء كلهم واذا تعين على ولي الامر منع من لم يحسن الطب من مداواة المرضى فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسنة ولم يتفقه في الدين « قال » وكان شيخنا شديد الانكار على هو لاء فسمعتة يقول : قال لي بعض هو لاء : اجعلت محتسبا على الفتوى : فقلت له : يكون على الجازين والطباخين محتسب ولا يكون على الفتوى محتسب انتهى

(دلالة العالم للمستفتي على غيره)

قال ابن القيم : هذا موضع خطر جداً فليتنبه الرجل الى من يدل عليه وليتق الله فانه اما معين على الاثم والعدوان واما معين على البر والتقوى وقد سأل الحافظ ابو داود - صاحب السنن - الامام احمد عن رجل يسأله عن مسألة فيدله على من يسأله فقال : اذا كان يعني الذي ارشده اليه متبعاً ويفني بالسنة :

وذكر بعد ورقات اذا علم ان السائل يدور على من يفتيه بفرضه في تلك المسألة فيجمل استفتاءه لتنفيذاً لفرضه لاتعبدك الله باداء حقه فلا بدعه ان يدلّه على غرضه ابن كان بل ان علم المفتي فيها نصاً عن الله ورسوله فلا يسعه تركه الى غرض السائل وان

كانت من المسائل الاجتهادية ولم يترجح له قول لم يسغ له ان يترجح لغرض السائل
« وهذه المسألة جديرة بالمحافظة عليها » وليرجع الى ثبوتها في كلامه

(هل يقول المفتي في المسألة قولان ونوادير في ذلك)

قال الامام ابن القيم في الاعلام : لا يجوز للمفتي تخيير السائل والقاؤه في الاشكال
والهجرة بل عليه ان يبين بياناً مزيلاً للاشكال متضمناً لفصل الخطاب ولا يكون كالمفتي
الذي سئل عن مسألة في الموارث فقال : يتقسم بين الورثة على فرائض الله عز وجل :
وكسبه فلان

« وسئل آخر » عن صلاة الكسوف فقال : تصلي على حديث عائشة .

« وسئل آخر » عن مسألة من الزكاة فقال : اما اهل الايثار فيخرجون المال كله
واما غيرهم فيخرج القدر الواجب عليه .

« وسئل آخر » عن مسألة فقال : فيها قولان . ولم يزد

« قال ابو محمد ابن حزم » وكان عندنا مفت اذا سئل عن مسألة لا يفتي فيها حتى
يتقدمه من يكتب فيكتب هو : جوابي فيها مثل جواب الشيخ . فقدر ان مفتين
اختلفا في جواب فكتب تحت جوابهما : جوابي مثل جواب الشيخين . فقبل له انهما
قد تناقضا فقال : وانا اناقض كما تناقضا .

« قال ابن القيم » : وكان في زماننا رجل مشار اليه بالفتوى وهو مقدم في مذهبه
وكان نائب السلطان يرسل اليه في الفتاوى فيكتب : يجوز كذا او يصح كذا او يتعد كذا
بشرطه . فارسل اليه بقول : « تأتينا فتاوى منك فيها : يجوز او يتعد او يصح
بشرطه نحن لانعلم شرطه . فاما ان تبين شرطه واما ان لاتكتب ذلك » قال « وسمعت
شيخنا — ابن تيمية — يقول : كل احد يحسن ان يفتي بهذا الشرط وهذا ليس بعلم ولا يفيد
سوى حيرة السائل وشككه .

(وكذلك) قول بعضهم في فتاوى : يرجع في ذلك الى رأي الحاكم : « قال »
فيا سبحان الله : لو كان الحاكم شريحاً واشباعه لما كان مرد احكام الله « رسوله الى رأيه
فضلا عن حكام زماننا والله المستعان

« وسئل » بعضهم عن مسألة فقال : فيها خلاف : فقيل : كيف يعمل المفتي (فقال)

يختار له القاضي احد المذهبين

« قال ابو عمرو ابن الصلاح » كنت عند ابي السعادات ابن الاثير الجزري فحكى لي عن بعض المفتين انه سئل عن مسألة فقال : فيها قولان فأخذ يزري عليه وقال : هذا حيد عن الفتوى ولم يخلص السائل من عمايته ولم يأت بالمطلوب . وللمبحث ثمة فليرجع اليه في كلامه رحمه الله

(اجناس الفتيا التي ترد على المفتين)

قال الامام ابن القيم في اعلام الموقعين : المفتي اذا سئل عن مسألة فاما ان يكون قصد السائل فيها معرفة حكم الله ورسوله ليس الا . واما ان يكون قصده معرفة ما قاله الامام الذي شهر المفتي نفسه باتباعه وتقليده دون غيره من الائمة ، واما ان يكون مقصود معرفة ما ترجع عند ذلك المفتي وما يعتقده فيها لاعتقاده عليه ودينه وامانته فهو يرضى بتقليده هو وليس له غرض في قول امام بعينه ، فهذه اجناس الفتيا التي ترد على المفتين

فغرض المفتي في القسم الاول ان يجب بحكم الله ورسوله اذا عرفه وتيقنه لا يسهه غير ذلك

واما في القسم الثاني فاذا عرف قول الامام بنفسه وسعه ان يخبر به ولا يحل له ان ينسب اليه القول ويطلق عليه انه قوله بمجرد ما يراه في بعض الكتب التي حفظها او طالعها من كلام المتسبين اليه فانه قد اختلطت اقوال الائمة وقتلوا بهم باقوال المتسبين اليهم واختياراتهم فليس كل ما في كتبهم منصوفاً عن الائمة بل كثير منه يخالف نصوصهم ، وكثير منهم لا نص لهم فيه ، وكثير منهم يخرج على فتاويهم ، وكثير منهم اقتوا به بلفظه او بمعناه

فلا يحل لاحد ان يقول هذا قول فلان ومذهبه الا ان يعلم يقيناً انه قوله ومذهبه فما اعظم خطر المفتي واصعب مقامه بين يدي الله تعالى

واما القسم الثالث فانه يسهه ان يخبر المستفتي بما عده في ذلك مما يغاب على ظنه انه الصواب بعد بذل جهده واستفراغ وسعه ومع هذا فلا يلزم المستفتي الاخذ بقوله وغايته انه يسوغ له الاخذ به ، فينزل المفتي نفسه في منزلة من هذه المنازل الثلاث وليقم بواجب فان الدين دين الله والله سبحانه لا بد سائله عن كل ما افق به والله المستعان ولا يخفى ان في القسم الاول ينبغي للمفتي ان يفتي بلفظ النص بل هو اللازم ما لمكنه

فانه يتضمن الحكم والدليل مع البيان التام وقد كان هو «ع» حجة الصحابة واصحابهم الذي يرجعون اليه وقد اسهب في ذلك بما لا يستغنى عنه فليراجع

(استبانة المفتي بمراجعة كتب المذاهب واختلاف الائمة)

في جمع الجوامع وشرحه «و» نرى «ان الشافعي ومالك وابا حنيفة والسفيانيين»
 الثوري وابن عيينة « واحمد » ابن حنبل « والاوزاعي واصمعي » ابن راهويه « وداود »
 الظاهري « وسائر ائمة المسلمين ^(١) على هدى مزيهم » في المقائد وغيرها وقال الشيرازي
 في الميزان وقد اجمعوا على انه لا يصى احد علما الا ان بحث عن منازع اقوال العلماء
 وعرف من اين اخذوها من الكتاب والسنة : « وقال » ان الشريعة كالشجرة العظيمة
 المنتشرة واقوال علماها كالفرع والاعصان « وقال » ان الشريعة المطهرة جاءت مشرعة
 سمحة واسعة شاملة قابلة اسائر اقوال ائمة الهدى من هذه الامة المحمدية وان كلا منهم
 فيها هو عليه في نفسه على بصيرة من امره وعلى صراط مستقيم وان اختلافهم انما هو رحمة
 بالامة « وقال » نقلا عن الامام الزركشي في آخر كتاب « القواعد » له ما مثاله : ان
 مطلوب الشرع الوفاق ورد اختلاف اليه ما يمكن كما عليه عمل الائمة من اهل الورع
 والتقوى كابني محمد الجويني واغصابه فانه صنف كتابه المحبب ولم يلتزم فيه المشي على
 مذهب معين انتهى ثم قال الشيرازي ، وقد بلنا انه كان يقضي الناس بالمذاهب الاربعة
 الشيخ الامام الفقيه المحدث المفسر الاصولي الشيخ عبد العزيز المديني ^(٢) وشيخ الاسلام
 عز الدين ابن جماعة المقدسي والشيخ العلامة الشيخ شهاب الدين البرلسي والشيخ علي
 التبرتي القزويني ونقل الشيخ الجلال السيوطي رحمه الله عن جماعة كثيرة من العلماء
 انهم كانوا يفتنون الناس بالمذاهب الاربعة لاسيما العوام الذين لا يتقيدون بمذهب ولا يعرفون
 قواعد ولا نصوصه ويقولون حيث وافق فعل هؤلاء العوام قول عالم فلا بأس به انتهى
 وذكر التاج السبكي في طبقات الشافعية في ترجمة امام الحرمين ما مثاله والامام لا يتقيد
 بالاشعري ولا بالشافعي لاسيما في البرهان وانما يتكلم على حسب تأدية نظره واجتهاده :

« ١ » ومنهم ائمة السلالة الناهضة الذين حمل عنهم علم جم وفقه كبير وتري تسميتهم

في نيل الاوطار للامام الشوكاني وفي غيره ايضا

« ٢ » قال الشيرازي بمدة صنف — المديني — كتاب الدرر المنتقاة في المسائل

المختلطة اتفق فيها على المذاهب الاربعة

وذكر في ترجمة ابيه الجويني انه الف كتابا سماه المحيط لم يتقيد فيه بذهب . وانه التزم ان يتف على مورد الاحاديث لا يستعدها ويتجنب جانب المعصية للمذاهب : كما قدمه الشيرازي . وذكر في ترجمة ابن جرير ان المحدثين الاربعة — ابن جرير وابن خزيمة وابن نصر وابن المنذر كانوا يذهبون مع اجتهدهم المطلق وكان كل منهم مجتهداً مطلقاً لا يقلد احداً ولم من الاختيارات مادونه السبكي في تراجمهم وهذا باب يطول استقصاؤه . وقد عد السيوطي في حسن الحاضرة من المجتهدين في مصر وحدها ما اثناف على السبعين فكيف بغيرها وكل من هؤلاء . انما كان بقى بما يؤديه اجتهداه وكان يتفق لكثير من هؤلاء وامثالهم من جمع الكتب المتنوعة للاستفادة بما فيها ما يدهش وقد حكي السبكي في طبقاته في ترجمة الامام عبد السلام ابن بندار انه دخل الى بغداد من مصر ومعه عشرة جمال عليها كتب بالخطوط المنسوبة في فنون العلم ^(١) وقال الشيرازي ايضا : ان كل مقلد اطلع على عين الشريعة المطهرة — ادلتها — لا يورس بالنقيد بذهب واحد وربما ازم المذهب الاحوط في الدين . مبالغة منه في الطاعة . والى نحو ما ذكرناه اشار الامام الاعظم ابو حنيفة رضي الله عنه بقوله . ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بابي هو وامي فعلى الرأس والعين وما جاء عن اصحابه تخبرنا وما جاء عن غيرهم فهم رجال ونحن رجال . ثم قال « اذا ثبت ذلك فيقال لكل مقلد امتنع عن العمل بقول غير امامه في مضايق الاحوال امتناعك هذا تعنت لا ورع لانك تقول لنا انك تعتقد ان سائر ائمة المسلمين على هدى من ربهم لا غتراف مذاهبهم من عين الشريعة » ثم قال « وكان الامام ابن عبد البر رحمه الله تعالى يقول : لم يبلغنا عن احد من الائمة انه امر اصحابه بالتزام مذهب معين لا يرى صحته خلافاً بل المنقول عنهم تقريرهم الناس على الفتوى بعمل بعضهم بهما لانهم كلهم على هدى من ربهم » وكان « يقول ايضا . لم يبلغنا في حديث صحيح ولا ضعيف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم امر احداً من الامة بالتزام مذهب معين لا يرى خلافاً وما ذلك الا لان كل مجتهد مصيب . » وكان « الزناتي من ائمة المالكية يقول : يجوز تقليد كل من اهل المذاهب في التنازل . وقد اطال الشيرازي في هذا البحث واجاد والقصد ان توسع المفتي في مراجعة مذاهب الائمة وافواهم بما يعينه على الاقوى والارجح في النازلة . اذ ليس الحق وفقاً على مذهب او كتاب

(١) ومما اغرب عنه انه كان يتفخر بالاعتزال ويتظاهر به حتى على باب نظام

الملك — الوزير الشهير — فيقول لمن يستأذن عليه : قل ابو يوسف القزويني المعتزلي .

وبالجملة فلا سبيل للوقوف على الضالة المنشودة الا بتتبع مطاوي الكتب وخبابا الاسفار ،
وبمقدار رفع المصعة في ذلك بمقدار زور الأفكار ، قال العلامة العطار في حواشيه على
شرح جمع الجوامع ^(١) من تأمل ما ذكره من تصدى لتراجم الائمة الاعلام علم انهم كانوا
مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية والاحكام الدينية لم اطلاع عظيم على غيرها من
العلوم واحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها حتى في كتب المخالفين في العقائد والفروع يدل
على ذلك الثقل عنهم في كتبهم والتصدي لدفع شبههم واعجب من ذلك تجاوزهم الى
النظر في كتب غير الاسلام ^(٢) « قال » فاني وقفت على مؤلف للقرافي ^(٣) رد فيه
على اليهود شبهة اوردوها على الملة الاسلامية لم يأت في الرد عليهم الا بنصوص التوراة
وبقية الكتب السماوية حتى يظن الناظر في كتابه انه كان يحفظها عن ظهر قلب ثم هم
مع ذلك ما اخلوا في تثقيف السنتهم وترقيق طباعهم من رفائق الاشعار ولطائف
المخاضات ، « ثم قال » ومن نظر فيما انتهى اليه الحال في زمن وقعنا فيه علم ان نسبتنا
اليهم كنسبة عامة زمانهم فان قصارى امرنا الثقل عنهم بدون ان نخترع شيئاً من عند
انفسنا ، ولينتنا وصلنا الى هذه المرتبة بل اقتصرنا على النظر في كتب محصورة فيها
المتأخرون المستمدون من كلامهم نكرها طول العمر ولا تطمح نفوسنا الى النظر سفي
غيرها حتى كأن العلم انحصر في هذه الكتب فلزم من ذلك انه اذا ورد علينا سؤال من
غوامض علم الكلام تخلفنا عنه بان هذا كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه او مسألة اصولية
قلنا لم نرها في جمع الجوامع فلا اصل لها او نكتة ادبية قلنا هذا من علوم اهل البطالة
وهكذا فصار العذر اقع من الذنب . واذا اجتمع جماعة منا في مجلس فالمخاطبات مخاطبات
العامة والحديث حديثهم ، فاذا جرى في المجلس نكتة ادبية ربما لانتفطن لها وان لفظنا
لها بالفننا في انكارها والاعراض عن قائلها ان كان مساوياً . وايدائه بشناعة القول ان

« ١ » صفحة ٢٢٥ جزء ٢

« ٢ » وقد قال السبكي في طبقاته في ترجمة كمال الدين ابن يونس شارح التنبيه —
احد ائمة الشافعية — تبهر في جميع فنون العلم وتقرؤ بعلم الرباعي . وكان اهل القمة
يقروون عليه التوراة والانجيل ويشرح لها هذين الكتابين شرحاً يعترفون انهم لا يجدون
من يوضحها لهم . مثله ، وكان اثير الدين الابهري — مؤلف ايساغوجي — يفضل ابن
يونس على الغزالي انظر ترجمته رحم الله الجميع

« ٣ » طبع

كان ادني ونسبناه الى عدم الحشعة وقلة الادب ، واما اذا وقعت مسألة غامضة من اي علم كان عند ذلك نفوم القيامة وتكثر القالة ويشكدر المجلس وتمتلي القلوب بالشحناء وتغمض العيون على القذى ، فالمرموق بنظر العامة الموسوم بما يسمى العلم اما ان يقتسر بالسكوت حتى يقال ان الشيخ مستغرق او يهذو بما تمجحه الابهام ، ونفر عنه الطبع ، « وقالوا سكرنا بحب الآله وما اسكر القوم الا القصع »

فاننا الآن كما قال ابن الجوزي في مجلس وعظه ببغداد

« مافي الديار اخو وجد نظارحه حديث نجد ولاخل نجاريه »

وهذه نفثة مصدور فسأل الله السلامة واللطف اه كلام العطار ووضع الاستشهاد منه تأسفه على الاقتصار على مافي الايدي من الاسفار مع ان الدواء الناجع هو التقييب عما خبأته ايدي السلف من جواهر العلم ونفائس النوائد وبالله التوفيق

(اعراض المفتي عن المقلد الخصم)

المقلد هو الذي لا يصل فهمه الى درك الدليل او لا يريد ان يصل ، اتعدته الفطرة عن الحقائق باولي العلم ، اوقع بالتخلف عن السباق مع ابطال النظر واغطاب الفهم ، فلما مانت قوته النظرية كان قصاراه ان يقف مع قول مفتيه ، ويجرع من الكلس الذي يسقيه ، فاذا تحكك بالدليل ، واخذ يخوض مع الابطال في القال والذيل ، دل على تطفله ، وفضوله وقوله وتمديه طوره ، ومجاوزه قدره فلهذا يجب الاعراض عنه ، وان تحجب مخدرات المناظرة منه ولما ابشيت الائمة قديما بالمقلدة الماحكين ، وضمووا لدره جدهم قوازين ، قال الامام حجة الاسلام ابر حاتم الغزالي رضي الله عنه وارضاه في كتابه فيصل التفرقة ^(١) وشرط المقلد ان يسكت ويسكت عنه لانه قاصر عن سلوك طريق الحجاج ولو كان اهلا له كان مستتبعا لا تابعا واماما لا مأموما ، فان خاض المقلد في الحاجة فذلك منه فضول ، والمشتغل به صار كضارب في حديد بارد ، وطالب اصلاح الفاسد « وهل يصلح العطار ما افسد الدهر اه وقال رضي الله عنه في « احياء علوم الدين » في الباب الرابع من ابواب العلم في مباحث المناظرة وتلبس المناظرين ما مثاله : اعلم ان هؤلاء قد يستدرجون الناس الى ذلك بارت غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق لينضح فان الحق مطلوب والتعاون على الفطر في العلم وتوارد الخواطر

مفيد وموثر هكذا كانت عادة الصحابة رضي الله عنهم في مشاوراتهم « ثم قال » ويطالعك على هذا التلبس ما اذكره وهو ان التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان (الى ان قال) الثالث ان يكون المناظر مجتهداً بقية برأيه لا بذهب الشافعي وابي حنيفة وغيرهما حتى اذا ظهر له الحق من مذهب ابي حنيفة ترك ما يوافي رأي الشافعي ووافي بما ظهر له كما كان يفعل الصحابه رضي الله عنهم والائمة فلما من ليس له رتبة الاجتهاد وانما بقية فيما يسأل عنه ناقلاً عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يتركه فاي فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم وما يشكل عليه يقول لعل عند صاحب مذهبي جواباً عن هذا فاني لست مستقلاً بالاجتهاد اهـ

وقال رضي الله عنه ايضاً في كتاب آداب تلاوة القرآن في اسباب مرائع الفهم الاربعة ما مثاله في الثاني (ثانياً) ان يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجهد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للسموع من غير وصول اليه ببصيرة ومشاهدة فهذا شخص قيده معتقده عن ان يجاوزه فلا يمكنه ان يخطئ بباله غير معتقده نصار نظره موقوفاً على سموعه ، فان لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تبين سموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطئ هذا ببالك وهو خلاف معتد آباءك فبرى ان ذلك من غرور الشيطان فيتباعد منه ويحتز عن مثله ولمثل هذا قالت الصوفية : ان العلم حجاب : وارادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها اكثر الناس بمجرد التقليد او بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها اليهم انتهى

وما اجمال قول الجاحظ عليه الرحمة : ^(١) التقليد مرغوب عنه في حجة العقل منه في القرآن ، نصراؤه قد عكسوا الامور كما ترى ونقضوا المعاداة وذلك انا لانشك ان من نظر ويبحث وقابل ووزن احق بالتبين وأولى بالحجة انتهى

(ما على المفتي اذا عرف الحق)

قال شيخ الاسلام ابن قيمية رحمه الله في كتاب الايمان . اتفق العلماء على انه اذا عرف الحق لا يجوز تقليد احد في خلافه وانما اتزاعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال وان كان عاجزاً عن اظهار الحق الذي يعلمه فهذا يكون ممن عرف ان دين الاسلام حق وهو بين النصارى فاذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤخذ بما عجز عنه

(١) من فصل للجاحظ مطبوع مع فصول له في الجزء الثاني من الكامل للبرد

واما ان كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد فهذا لا يؤخذ ان اخطأ كما في القبلية
واما ان قلد شخصاً دون نقايير بمجرد هواه ونصره يده ولسانه من غير علم ان مع الحق فهذا من اهل الجاهلية وان كان متبوعاً مصيباً لم يكن عمله صالحاً وان كان متبوعه مخطئاً كانت آثماً وهو لاء من جنس مانع الزكاة ومن عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخمصة فان ذلك لما احب المال حباً منه عن عبادة الله وطاعته صار عبداً له وكذلك هؤلاء فيكون فيه شرك اصغر ولم من الوعيد بحسب ذلك وفي الحديث «ان يسير الرياء شرك» اه كلامه عليه الرحمة

(تورع المفتي عن التضييل والتكفير)

مما يزين العالم كبر عقله وشدة رزائنه وحصافة لبه ، وما يشينه ويزريه طيشه وحمقه وخفته وتسرع قراءه بذلك بهوي من حاله وان نال الجوزاء برفاته بحق او بغير حق فجفظ اللسان صيانة الانسان «وهل يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد السنتهم»

قال حجة الاسلام الغزالي في «فصل التفرقة» . اذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجرد الفقه يخوض في التكفير والتضييل فاعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك فان التحدي بالعلوم غريزة في الطبع لا يصبر عنه الجهال ولا جله كثر الخلاف بين الناس ولو ينكث من الايدي من لا يدري لقل الخلاف بين الخلق^(١)

(وقال) رضي الله عنه ايضاً . واعلم انه لا تكفير في الفروع اصلاً الا في مسألة واحدة وهي ان ينكر اصلاً دينياً علم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر (ثم قال) ولو انكر ما ثبت باختيار الآحاد فلا يلزمه به الكفر ولو انكر ما ثبت بالاجماع فهذا فيه نظر لان معرفة كون الاجماع حجة قاطعة فيه غموض يعرفه المحصلون لعلم اصول الفقه وانكر النظام كون الاجماع حجة اصلاً فصار كون الاجماع حجة مختلفة فيه

«وقال ايضاً» ولا يلزم كفر المأولين ما داموا يلزمون قانون التأويل وكيف يلزم الكفر بالتأويل وما من فريق من اهل الاسلام الا وهو مضطر اليه
«وقال ايضاً» كأن كل واحد لا يرضى بما ذكره الخصم ولا يراه دليلاً قاطعاً وكيفما

(١) اقول هو يعني قول سقراط . لو سكت من لا يعلم لسقط الاختلاف

كان فلا ينبغي ان يكفر كل فريق خصمه

وكتابه رضي الله عنه هذا فيصل التفرقة مما بهم كل نبيه مراجعته ومطالعته فلم يولف في موضوعه مثله

وقال الامام ابن حزم في الفصل^(١) في الكلام فيمن يكفر ولا يكفر ما مثاله: اختلف الناس في هذا الباب الى ان قال وذهبت طائفة الى انه لا يكفر ولا يفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد او فتيا وان كل من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى انه الحق فانه مأجور على كل حال ان اصاب الحق فاجران وان اخطأ فاجر واحد وهذا قول ابن ابي ليلى وابي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري وداود بن علي رضي الله عن جميعهم وهو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة رضي الله عنهم « الى ان قال « والحق هو ان كل من ثبت له عقد الاسلام فانه لا يزول عنه الا بص او اجماع . واما بالدعوى والافتراء فلا « الى ان قال « واما من كثر الناس بما تقول اليه اقوالهم نخطأ لانه كذب على الخصم ونغوي لاه ما لم يقل به وان لزمه فلم يحصل على غير التناقض فقط والتناقض ليس كفراً

ونعمة البحث من نقاش العلم فليرجع اليها

(انقاء المفتي التسرع في دعوى الاجماع)

كثيراً ما يمر بمطالع كتب الفقه دعوى الاجماع في بعض المسائل او النوازل ولا سند له الا عدم العلم بالخالف فيأتي سير التقليد فيثقله نفي اعتقاده انه مجمع عليه مع ان الواجب عليه اما التقيق جهده في سائر بطون الكتب الفروعية واسفار الخلاف حتى يسقط على الحقيقة في دعوى الاجماع او يحذف كلمة الاجماع من نقله وعزوه فقد ظهر فيما يخص من المسائل المدعى فيها الاجماع ان وراءها خلافاً في مذاهب اخرى بل في كتب منتشرة قد لا تخلو خزائن عالم منها ، وما الطف قول شمس الدين الاصفهاني — من كبار ائمة الشافعية — في شرح الحصول . الحق تعذر الاطلاع على الاجماع الا اجماع الصحابة حيث كان المجمعون وهم العلماء منهم في قلة واما الآن وبعد انتشار الاسلام وكثرة العلماء فلا مطمع العلم به « قال « وهو اختيار « الامام » احمد مع قرب عهده من الصحابة وقوة حفظه وشدة اطلاعه على الامور النقلية « قال « والمنصب

يعلم انه لاخير له من الاجماع الا ما يجده مكتوباً في الكتب ومن البين ان لا يحصل الاطلاع عليه الا بالسماع مسموع او بقل اهل التواتر اليقينا ولا سبيل الى ذلك الا سيف عصر الصحابة واما من بعدهم فلا انتهى كلام الاصفهاني

ووجه الانفاء والتورع في دعوى الاجماع في بعض الاحكام هو ان الاجماع على ما عرفه الاصوليون — اجتماع علماء المسلمين على حكم من الاحكام : ولذا قال شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية : واما قول بعض الائمة كالفقهاء الاربعة وغيرهم فليس حجة لازمة ولا اجماعاً بالتفاق المسلمين بل قد ثبت عنهم رضي الله عنهم انهم شربوا الناس عن تقليدهم وامروهم اذا رأوا قولاً في الكتاب او السنة اقوى من قولهم ان يأخذوا بما دل عليه الكتاب والسنة ويدعوا اقوالهم ولهذا كان الاكابر من اتباع الائمة الاربعة لا يزالون اذا ظهر لهم دلالة الكتاب والسنة على ما يخالف قول متبوعهم اتبعوا ذلك انتهى وفي معالم الاصول . اذا اتفق جماعة ولم يعلم لم يخالف فليس اجماعاً قطعاً اذ لا يعلم ان الباني موافقون ولا يكفي عدم علم خلافتهم فان الاجماع هو الوفاق لا عدم علم الخلاف انتهى وقال حجة الاسلام الغزالي في كتابه « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » واما ما يستند الى الاجماع فتدرك ذلك من انمحض الاشياء اذ شرطه ان يجتمع اهل الحل والعقد في صعيد واحد على امر واحد اتفاقاً بلفظ صريح ثم يستمر واعليه مرة عند قوم والى انقراض العصر عند قوم ومن هذا علم حد الاجماع (وقال ايضاً) وانما يعرف ذلك — مراضع الاجماع — من مطالعة الكتب المصنفة في الاختلاف والاجماع للشاف ثم لا يحصل العلم في ذلك بمطالعة تدقيق ولا تصنيفين اذ لا يحصل تواتر الاجماع به (قال) وقد صنف ابو بكر الفارسي رحمه الله كتاباً في مسائل الاجماع وانكر عليه كثير منه وخولف في بعض تلك المسائل (قال) فاذن من خالف الاجماع ولم يثبت عنده بعد فهو جاهل مغفل وليس بمكذب فلا يمكن تكفيره والافتقار لمعرفة التحقيق في هذا ليس يسير انتهى كلام حجة الاسلام نفعنا المولى بعلومه

(المقتي والعالم بازاء من يبرزه بالالفاظ)

ان العالم لما اخذ الله عليه الصدع بالحق والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وان لا يخاف في الله لومة لائم كان مرضاً من اعداء انفسهم وعبيد اهلهم للشأن والبرز بالالفاظ قهراً ان وجدوه يميل للظفر في الادلة على الاحكام والوقوف على ماخذ المذاهب

والاقوال وتخري الاقوال والاصح بدوئ تعصب لامام ولا تحوب لآخر نيزوه
بالاجتهاد وسموه (مجنهداً) تنهكاً مع انه بذلك لم يتم الا بواجبه ، وان ابصروا ميله لعلوم
الحكمة والرياضيات وتشوبقه لاقطاف ثمارها سموه (طبيعيًا) وان رأوا حشه على البذل
والانفاق في سبيل الله ودعواه للموسرين للعطف على البؤساء لقبوه (اشتراكيًا) وان
سموه يتكلم في الزبارة المشروعة وينهى عما أحدث فيها او يتكلم على انواع الشرك المقررة
في السنة او يزجر عن الفلوف الصالحين دعوه (وهايّا) ^(١) الى غير ذلك من افانين
اقولهم ونيزهم بالالقباب لكل من لا يماثلهم على ميولهم ولا يسايرهم على اهوائهم . ولم في
كل عصر تلقيب جديد ونيز مبتدع

العالم الحكيم لا يابه لهذه الالقباب اذا صدع بالحق ولا تحزنه بل يعبرها اذا صما لانه
يجري على ما يوجهه دينه ، و يفرضه عليه يقينه ، وهو ما يرضي ربه وخالفه تعالى فان
رضاء الناس غاية لا تدرك وانى للعاقل ارضاء اهواء متبانية ومتنازع متناقضة

ما الله الا لقباب التي تنوع على المصلح وهو ساع الى خير قومه وما اوجب الترحيب
بها والابتنام لها فان امامه من الانبياء ووارثيهم ما يعز به وبسليه وكفى بهم اسوة وما
اصدق قول ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم : انه لم يأت احد بمثل ما جئت به
الا عودي : رواء البخاري

الثبات على تحمل المشاق والصبر الجميل من الواجبات المحتمة على كل داع الى حق
والصدمات التي يجدها البطل المقدم يجب ان تقابل بثبات الجأش وان تكون كلما تجددت
باعثة على تجديد القوى ومواصلة العمل والسير ولذلك قرن تعالى في كتابه الحكيم التواصي
بالحق بالتواصي بالصبر وصدق الله العظيم

(خوض بعض المفتين في اختلاف)

مسألة التلفيق من غرائب المسائل الحديثة المفردة على القول بلزوم التذهب للعامي
وهو قول لا يعرفه الساب ولا ائمة الخلف وقد انفت كلتهم على ان العامي لا مذهب له
ومذهبه مذهب مفتيه .

(١) الوهابية طائفة مقلدة للامام احمد بن حنبل رضي الله عنه ولا صحابه وحاشا لي
فنه في الاصول والفروع وقد بسط الكلام في شرح احوال العلامة الجبرتي مفتي مصر
في تاريخه وهو متداول ومطبوع مراراً

تري الفقيه من القرون المتأخرة لو سئل عن رجل مسح بعض رأسه أقل من ربه في وضوءه ثم خرج منه دم وصلى يجيبك بأن صلاته باطلة لأن عبادته ملققة من مذهبين نخرج منها قول لا يقول به أحد هذا قصارى جوابه في فتواه وقبله عليه على دعواه مع أنه لو فرض أنها حدثت في القرون الأولى وسئل عنها، فمت سلفي لكان نظره في مصحتها أو فسادها الى الدليل المبيح لها أو الحاضر ولا يمكن أن يتصور أن يقول له: عملك هذا ملق أو هذا تلغيق وإنما يأمره بالفعل أو بالتترك استدلالاً أو استنباطاً فحسب، ولذلك لم يسمع لفظ التلغيق في كتب الائمة لا في موطناتهم ولا في امهاتهم بل ولا في كتب اصحابهم ولا اصحاب اصحابهم ولا يبعد أن يكون حدوث البحث في التلغيق في القرن الخامس أيام اشتد التعصب والتحزب ودخلت السياسة في التمدب، واضطر الفقهاء للاعتياش والارتياش الى التشدد في ذلك والتصلب، فمسألة التلغيق اذن من مسائل الفروع ولا دخل لها في الاصول فأن مسائل الاصول هي: باحثه التي يستمد منها معرفة الاستنباط والاستنتاج مما لاجله سمي الاصول اصولاً فمن أين ان يعد منها التلغيق الذي لم يحظر على بال أحد في القرون الاولى ولا سمع به،

اتسع امر التأليف في القرون المتأخرة وادخل في كل فن ما ليس منه بل امتلاً مثل الفقه من الفرضيات أضعاف اضعاف الواقعيات فلو وازنت بين اسلوب المتقدم والمتأخر في أي فن لذهشت من تباينهما عجباً فكانت كتب المتقدمين لا تخرج عن موضوع الفن قيد شبر حتى استفحل الأمر في التأليف وجرى من جرائه ما ناهى غير واحد من الحكماء وقد ألم بشيء من ذلك القاضي ابن خلدون في مقدمة تاريخه

والمقام لا يتسع لسط هذا البحث الذي نتجازه امور عديدة لمعرفة منشأه من اختلاف السياسة ودخول عوائد الامة الغالبة على المغلوبة قسراً وتبدل المألوف والمطالب حيث تباين العلم والتوصل لثيله فاختلفت جيد الكتب بغيره وتبدلت العادات بغيرها وحارثت المراتب والمناصب وفقاً على هذا السبيل لاثبات بغيره فتبعها ضرورة امر التأليف فجرى على سنتها ومناهجها وحارث التمدب اصلاً وانحازت وتعددت لاجله الفرق الاسلامية كل يدوم لمام ورائده السياسة والايدى تنشأ مانشأ وتولد ماتولد بما لا عهد للامم به بل ببيتهم وبين صيرهم الاول بعد المشرعين؛ وفي ذلك كله من دق في فلسفة التاريخ واستقرأ قواعد الفاتحين واصول الدول واستكنه رجالها وحلية العصر والحظر في كل مملكة وجبل وقد بسطناه في مقالة خاصة والقصدان التلغيق الذي يبحث عنه المؤرخون

ينبغي للفتي اذا استغني عن مسألة منه ان ينظر الى مأخذها من الكتاب او السنة او مدرستها
المعقول منها واما تسرع الى القول بالتلفيق بطائناً او قبولاً فعدول عن مبيع السلب
على ان يسمونه بعد تفليقا بتقطع النظر عما ذكرنا في شأنه راجع الى نوع الرخص التي
يجب الله ان توثق وللشيخ مرعي الحنبلي — احد فقهاء الحنابلة المشاهير — رسالة في
جواز التلفيق للعوام وهي رسالة نفيسة قال : لان العلماء نصوا على ان العامة ليس لهم
مذهب معين (قال) وقد قال غير واحد لا يلزم العامي ان يتخذ مذهب معين كما لم
يلزم في عصر اوائل الامة (قال) والذي اذهب اليه واختاره القول بجواز التقليد في
التلفيق لا يقصد تتبع ذلك بل من حيث وقع ذلك اتفاقاً خصوصاً من العوام الذين
لا يسعهم غير ذلك (الى ان قال) ولا يسع الناس غير هذا ويؤيده انه في عصر
الصحابه والتابعين رضي الله تعالى عنهم مع كثرة مذاهبهم وتباينهم لم ينقل عن احد
منهم انه قال لمن استفتاء الواجب عليك ان تراعي احكام مذهب من قلده، لئلا تلتحق
في عبادته بين مذهبين فاكثر بل كل من مثل منه عن مسألة افنى السائل بما يراه
مجيئاً له العمل من غير تخص ولا تفصيل ولو كان ذلك لازماً لما اعملوه خصوصاً مع
كثرة تباين اقوالهم انتهى

وقال العلامة الدسوقي — من فقهاء المالكية في مصر — في حواشيه على شرح خليل
في بحث الفتوى من خطبة الكتاب ما مثاله وفي كتاب الشرحيني امتناع التلفيق والذي
سمعناه من شيخنا نقلاً عن شيخه الصغير وغيره ان الصحيح جوازه وهو فسخة (قال الدسوقي)
وبالجملة ففي التلفيق في العبادة الواحدة من مذهبين طريقان المنع وهو طريقة المصاروة
والجواز وهو طريقة المعارضة ورجحت انتهى

وقال ابن الهمام في فتح القدير في كتاب ادب القاضي : المقلد له ان يقلد اي مجتهد
شاء « ثم قال » : وانا لا ادري ما يمنع هذا « اي تتبع الرخص واخذ العامي في كل مسألة
بقول مجتهد اخف عليه « من النقل او العقل ، وكون الانسان يتبع ما هو اخف على
نفسه من قول مجتهد مسوغ له الاجتهاد ما علمت من الشرع ذمه عليه وكان صلى الله
عليه وسلم يجب ما خفف عن امته انتهى

نقول هذا اقتناعاً لمن يهوله امر التلفيق ويزعم ان الحكم بجوازه شيء لا يكره مع ان امامه
من الافاضل ممن تكبرهم من قال بجوازه لابل من صححه ورجحه أما نحن فانا نرى
الرجوع في مسألة الى سنة السلف والائمة في مثلها كما اوضحناه وبالله التوفيق

(ما يعمل المفتي اذا فحص اقوال الائمة)

ذكر أبو عمر محمد بن يوسف الكندي في كتاب القضاة الذين ولوا قضاء مصر في تولية قضاء مصر لابراهيم بن الجراح سنة ٢٠٤ مأماله : عن عمر بن خالد قال : ما صحبت احدا من القضاة كإبراهيم بن الجراح كنت اذا اعمت له المحضر قرأه عليه اقام عنده ماشاء الله ان يقيم ويرى فيه رأيه فاذا اراد ان يقضي به دفعه لي لانشي منه سجلا فاجد في ظهره قال ابو حنيفة كذا وفي سطر قال ابن ليلى كذا وفي سطر آخر قال ابو يوسف كذا وقال مالك كذا ثم اجد على سطر منها علامة له كالخطبة فاعلم ان اختياره وقع على ذلك القول فانشي السجل عليه انتهى وهكذا حق المفتي ان ينظر في الواقعة الى اقوال الائمة ويخلصها وينعم النظر حتى اذا استبان له قوة احدها توكل على الله تعالى وانفى به الائمة باجمعهم لم يغادروا في التنازع بذل الوسع حتى اجتمع من اقوالهم الكثير الطيب ووجد فيها الامثل فالامثل واعني بالترائل ما تجدد على عهدهم واما المأثور فما كان عن الصحب رضوان الله عنهم فكذلك يتخير فيه الامثل وما كان عن الحضرة النبوية فهناك فصل الخطاب والله الموفق

(لمة الآداب في هذا الباب)

نظم هذا البحث الجليل بما جاء في الافناع وشرحه ^(١) في كتاب القضاء والفتيا مما لم نذكره قبل وعبارته مع شرحه

يحرم الحكم والفتيا بقول او وجه من غير نظر في الترجيع اجماعا ^(٢)

ويجب ان يعمل بموجب اعتقاده فيما له وعليه اجماعا قاله الشيخ ^(٣)

وبدني ان يكون بصيرا بمكر الناس وخداعهم حذرا مما يصورونه في سوء الاتهم لثلاث يوقوه في المكروه

ويحرم تساهل مفت وتقليد معروف به (قال الشيخ) : لا يجوز استفتاء الا من يفقي بعلم او عدل :

(١) هو من اهم كتب الفروع عند الحنابلة ولا يستغني عنه مفت ولا قاض لسيره من الفروع ما لا يوجد في غيره جزى الله طابه وواقفه خيرا

(٢) تقدم لنا هذا واعدهنا تذكره به لكثرة التساهل فيه

(٣) يعني به شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله

و يلزم المفتي تكرير النظر عند تكرار الواقعة وان حدث مالا نقول فيه تكلم فيه حاكم ومجتهد ومفت

وينبغي للمفتي ان يشاور من عنده ممن يثق بعلمه الا ان يكون في ذلك افشاء سر السائل او تعريضه للاذى او مفسدة لبعض الحاضرين فيغنيه ازالة لذلك

ولا يلزم جواب مالا يحمله السائل لقول علي - كما في البخاري - حدثوا الناس بما يعرفون اتريدون ان يكذب الله ورسوله وفي مقدمة مسلم عن ابن مسعود : ما انت بمحدث قوما حديثا لاتبلغه عقولهم الا كان فتنة لبعضهم

ولا يلزم جواب مالا تقع فيه ظنر احمد عن ابن عباس انه قال قال عن الصعابة : ما كانوا يسألون الا عما ينفعهم

وللمفتي قبول هدية لكن لا يفتيه بما يريد مما لا يفتي به غيره والا حرم قبولها وللمفتي رد الفتيا ان خاف غائلتها او كان في البلد من يقوم مقامه في الفتيا والالم يميز له ردها لتعنيها عليه (والتعلم كذلك)

ومن قوي عنده مذهب غير امامه لظهور الدليل معه افتى به واعلم السائل ويجوز للمفتي العدول عن جواب المسؤل عنه الى ما هو انفع للسائل وللمفتي ان يدلله على عوض ما منعه عنه وان ينهه على ما يجب الاحتراز عنه لان ذلك من قبيل الهداية لدفع المضار

واذا كان الحكم مستغربا وطأ قبله ما هو كالمقدمة له وله الحلف على ثبوت الحكم احيانا لاية « قل اي والي انه الحق » وآية « فرب السماء والارض انه الحق مثل ما انكم تنطقون » والسنة بذلك كثيرة وله ان يكذبك مع جواب من تقدمه بالفتيا اذا علم صواب جوابه فيقول : جوابي كذلك والجواب صحيح وبه اقول :

واذا مثل المفتي عن شرط واقف لم يفت بالزام العمل به حتى يعلم هل الشرط معمول به في الشرع او من الشروط التي لاتحل مثل ان يشرط ان يصلي الصلوات في التربة المدفون بها الواقف ويدع المسجد او يدخل بها قنديلا او سرجا لان ذلك محرم كما تقدم (لصاحب الافئدة) في الجنائز^(١)

(١) في كتاب تيسير الوقوف على غوامض احكام الوقوف للامام المناوي في الفصل الثالث في الحادثات والواقعات من الكتاب الثاني قال (حادثة) بالشام في القرن السابع

ولا يجوز إطلاقه في الفتيا في اسم مشترك اجماعاً بل عليه التفصيل في الجواب ، فلو سئل المفتي هل له الاكل في رمضان بعد طلوع الفجر فلا بد أن يقول : يجوز بعد الفجر الأول لا الثاني . وارسل الامام ابو حنيفة الى ابي يوسف يسأله عن دفع ثوباً الى قمار قصره وجعله هل له اجرة ان عاد وسئل الى ربه وقال ابو حنيفة ان قال ابو يوسف نعم اولاً خطأ ففطن ابو يوسف وقال ان قصره قبل مجوده فله الاجرة لانه قصره لربه وان قصره بعد مجوده لا اجرة له لانه قصره لنفسه . (وسأل) ابو الطيب الطبري قوماً من اصحابه عن بيع رطل تمر يرطل تمر فقالوا يجوز بخطأهم فقالوا لا بخطأهم فقال : ان تساوا يا كيلا جاز : فهذا يوضح خطأهم المطلق في كل ما يحتمل التفصيل ولا يجوز للمفتي ولا لغيره تتبع الحيل المحرمة والمكروهة ولا تتبع الرخص لمن اراد نفعه فان تتبع ذلك فسق وحرم استناده ، وان حسن قصد المفتي في حيلة جائزة لاشبهة فيها ولا مفسدة لتخلص المستفتي بها من حرج جاز

وللمستفتي العمل بخط المفتي وان لم يستمع الفتوى من لفظه اذا عرف انه خطه وحيثيق بالمفتي ان يكثر من هذا الدعاء النبوي « اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل وهوان شخصاً وقت وشرط على المؤذن ان يقوم بالتسبيح او اخر الليل على العادة (فاجاب) ابن تيمية وتبعه بعضهم بان ذلك بدعة مكروهة باتفاق المسلمين وما كان مكروهاً لم يكن لاحد ان يأمر به ولا يتعلق استحقاق الرزق به ولا يلزم فعله وان شرطه الواقفاه بحروفه وما لطف ما خلصه الامام ابن القيم في اعلام الموقعين في شروط الواقفة بقوله بعد مقدمات : وبالجمله فشروط الواقفين اربعة اقسام شروط محرمة في الشرع وشروط مكروهة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشروط تنضم ترك ما هو احب الى الله تعالى ورسوله وشروط تنضم فعل ما هو احب الى الله تعالى ورسوله ، فالاقسام الثلاثة الاول لاحرمة لها ولا اعتبار والقسم الرابع هو الشرط المتبع الواجب الاعتبار وبالله التوفيق ، وقد ابطال النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشروط — الثلاثة — كلها بقوله : من عمل عملاً ليس عليه امرنا فهو رد وما رده رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجوز لاحد اعتباره ولا الزامه ، وتفيذه ، ومن تفطن لتفاصيل هذه الجمله التي هي من لوازم الايمان تخلص بها من آمار واغلال في الدنيا واثم وعقوبة ونقص ثواب سيئ الآخرة وبالله التوفيق : وذكر قبل ان قولهم : شرط الواقف كنص الشارع : ليس على اطلاقه وانما ينزل في هذا التفصيل فارجع الى تفصيله في الجزء الثالث من اعلام الموقعين

فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه
يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط
مستقيم»

هذا ما يسر المولى بقضله جمعه من عدة مصنفات ، كما يظهر في العزو اليها في الاصل
او التعليقات ، والمقام جدير بالعناية ، لذوي الدراية ، والله ولي الهداية ،

دمشق : جمال الدين القاسمي



أوغست كونت وفلسفته (١)

« تمهيد »

نبغ في فرنسا بعد نقض الاوضاع القديمة كثيرون من المفكرين الذين بحثوا في
نظريات الاجتماع وفي طبيعة هؤلاء النابغين الفيلسوف اغست كونت . وقد اختلف
الباحثون في مذهب علي مركزه الفلسفي فوضعه قوم بين ديمتر وفوريه وقالوا بوحدة
آرائهم مع اعترافهم لكونت برجاحة العقل وتوفر المكتسبات الفنية وجعله آخرون بين
هيوم ولايبنج وامثالهما فأخطأ الفريقان مركزه وغرّ الاولين ما رأوه بين المارق التي
انتهجها الفلاسفة الثلاثة الى مقاصدهم من التشابه فغلغلم ذلك عن النظر في ضعف
الرابعة بين مرامي كونت الباحث في تجديد شروط الاتحاد الاجتماعي ومرامي
ديمتر وفوريه وانفرد كونت عن سواه بمبدأ المشهور ان النظام الاجتماعي لا يمكن تغييره
الا اذا جعلت التصورات النظرية في الهيئات الاجتماعية خاضعة لتأثير الفن وادبجت
في ماسواها من المستبطات البشرية وهذه الخاصة تفسح لكونت مجالاً بين فلاسفة
الاجتماع الناشئين في القرن الثامن عشر وتربطه بتورغوي ومونتسكيو وقوندورسه
الذي كان كونت بدعوه بآية الفلسفي وهو تصريح يكفي لاثبات ما نقول

يصعب علينا ان نلخص في هذه الصفحات فلسفة كونت المودعة في ستة مجلدات
ضخمة ولا سيما ان كتاب الغرب الذين اجالوا افلامهم في الموضوع كستوارت ميل
وغيره ممن درسوا فلسفة كونت عن كتب والقوا في انتقادها لم يوضحوا مذهبهم ايضاحاً

يزيل اللبس والالهام ويوقف المطالع على حقائقه . ولم يكن بين من كتبوا في هذا المبحث من أوضح لنا كيف اقتبس كونت فلسفته من الرياضيات وما الذي دعاه الى تقسيم المعلومات البشرية الى ستة فروع كبرى وكيف بدأت فلسفته بفكر رياضي وانتهت بفكر اجتماعي . ولا يتسنى لنا ان نفهم حقيقة هذا الفيلسوف الا اذا درسنا ترجمته ف نحن بادئون بها وصارون الى مذهبه الفلسفي

ترجمته

هو ايزيدور - اغست - ماري - فرانسوا قزاويه كونت (Conte) ولد في قصبة مون بيليه سنة ١٧٩٨ وكان والده يجي الخراج في القصبة المذكورة وبعد ان اتم التحصيل الابتدائي في مدرستها دخل دار الفنون في باريس فامتاز فيها بعصيانته للقوة الرسمية الحاكمة واحترامه الشديد للكمال الخلق والفكري وثباته الراسخ في توحي غايته ولم يطل مكثه فيها سوى سنتين رأس بمدتها احتجاباً على احد اساتذتها آل الى اخراجه من المدرسة فعاد الى موطنه حتى كانت سنة ١٨١٦ فأمم باريس غير مكتوث باعتراض والده الشديد واقام فيها يحصل قوته بالقاء دروس خاصة في الرياضيات وجعل همه تحدي بنيامين فرانكلين الذي كان يدعو سقراط زمانه في معيشته على انه امتاز عن جميع الفلاسفة بصلابة العزم والثبات على مبدأ فلم تلوه عنه حياة تبكي تعاسة وشقاء

وضاق به العيش في باريس فخذلته النفس بالمهجرة الى اميركا وكان على وشك ان يرحلها لولا صديق ثنى عزمه عن المهاجرة بجملة اوردها في عرض حديث تجاذبا اطرافه عن « الفكر العملي » في العالم الجديد فقال له صديقه ان لا كرنج (رياضي فرنساوي شهير) لو ذهب الى اميركا لم يجد عملاً يقوم بأوده سوى مسح الارضين . فمدل كونت عن السفر واقام في باريس يعالج الحياة المرة ويتبلغ بثانين ليرة بنقاضها راتباً سنوياً من احد المدارس التي انتدبه لتعليم الرياضيات حتى سعى له اصدقاءه بوظيفة تدريس في دار المسيو كازيمير بريه المشهور فدخلها ووجد هناك اسباب الراحة والهدوء غير ان المعيشة لم ترقه لخيبته الى الحرية التي اضاعها فلم يستقر به المقام اكثر من ثلاثة اسابيع ودع بعدها مضيقه وعاد الى حاجته السابقة وقناعته الفطرية وقد يكون الفقه في الشبهة داعية الشر الا اذا كان الشاب الفقير متمكناً فتساعده الحاجة حينئذ

على ان يكون اميل الى الحقيقة منه الى الخيال

وسنة ١٨١٨ اتصل كونت بهنري دوسان سيمون ابن اخت الدوق دي سان سيمون المشهور وكان في عهده من كبار كتاب المذكرات السياسية فكان لهذا الاتصال تأثير شديد في نظريات كونت الفلسفية

كان سان سيمون يوم لزمه كونت في الستين من عمره ولم يكن ذا شهرة طائرة غير ان غرابة حياته واحواله الاجتماعية وافكاره السياسية تستوقف الانظار فقد قضى الرجل عمره ساعياً بماله من الملكة العقلية الرائعة لتطبيق خيالاته على حقائق الاشياء والتربية الفنية لم يكن لها اقل اثر في هذا الرجل لانه لم ينشأ عليها ولا شعر بلزومها على انه كان خبيراً بالاتحاد الاجتماعي وله في السياسة المثبتة وترقي البشر كثير من الافكار الخطيرة ولكنه لم ينهها على محاذية منطقية بل هي اشبه بتخيلات الشعراء

هذا الفيلسوف التديم سحر كونت فلم يستطع ان يفكر في حقيقته الا بعد ان فارقه حتى انه لقبه بالمحزق في حديث له بعد ان انتقلت اواصر ودها ولم يستطع الا ان يعترف بنفوذه عليه وتأثيره في تربيته الفلسفية واشتدت وطأة التأثير على كونت حتى ناء بها وهذا نفسه يوم مغادرته سيمون يخضع هذا النير عن عائقه . وتعرف ما كان للفيلسوف الشيخ من اليد عند كونت من كتاب بحث به الاخير الى صديق له يقول فيه : ان سيمون اراني الخطة الفلسفية التي اسكنها فانما طرد السير فيها كل عمري غير ملتفت الى ورائي وهذا الاعتراض السريع لا يحيط من قدر كونت ولا ينفقض ارجحيته العقلية وتفوقه بدرجات على صديقه الشيخ ولا ينقص من قدره انه اخذ كثيراً من افكاره التي اقام عليها بناءه الفلسفي من افكار سيمون المضطربة وخلاصة القول انه لا يصح ان نعد كونت تلميذاً لسان سيمون ولا مقلداً له وكل ما في الأمر ان الشيخ اوقف صديقه الشاب على نقطتين مهمتين كان لها الشأن الأكبر في فلسفة الاخير اولاهما ان الحوادث السياسية هي كالحوادث الطبيعية يمكن جمعها وربطها بقوانين مقررة وثانيتهما ان غرض الفلسفة الاصلي للبحث في القضايا الاجتماعية فتناول كونت هذا المبدأ وتوسع في بسطه وتوسعه توسعاً لم يخاطر للشيخ في بال

دامت صحبة الرجلين ست سنوات ثم بدأت بالانحلال لما اوفر كونت من سلطة سيمون القليلة وما دخل على نفس الشيخ من القهر والحسد لما رأى ميعة الشاب عليه بداركه ومواهبه وحدثت ثم حادثه قطعت العلائق التي رثت ووعت ولمخضها ان سان سيمون

نشر كتاباً في الاجتماع الفحل فيه معظم افكار كونت لنفسه فغضب الاخير وعاتب صديقه عناً مراراً ولم يكن سبيل للتوفيق بين الرجلين فكان فراقهما ابدياً وتزوج كونت سنة ١٨٢٥ فزاد ذلك في اسباب تهاسته وشقاقه لان أسرته وهي شديدة التعصب للملكية والكاثوليكية اغضبها زواجه المدني فافلقت به باحتجاجها الا ان ذلك لم يمنعها من الاحتفاء بزوجه وشخص العروس ان الى مون بيليه فأقاما فيها هنيهة سمعت الزوجة فيها عينة القرية ذات الذوق الواحد وبدأ نزاع انتهى بفراق الزوجين كما سيبي^٤ وقد كتب كونت الى صديق مخلص في السنة الاولى بعد زواجه يقول : «ان الاحزان اغرفتني والمواجس استحوذت علي فاضطرت ان افادي من سعادتي بجزء إذا لم يكن اعظم اجزائها فهو الذها واحلاها»

أوه الافكار السامية في هذه البيئة الرديئة يحرك سيف النفوس مواضع الدهشة والاعجاب ويحملها على احترام الفيلسوف الذي كان يقوم على تنشئتها والخطوب المتوالية لتفسد نظام حياته وكان الفشل حليفه في كل اعماله فاحقق سيفه إيجاد تلامذة يتلقون افكاره وآراءه ولم يجبه سوى شخص اشجرتة الوحدة فودع استاذ غير آسف وفي هذه الاثناء اخذت افكار الفيلسوف بالتكامل وشرع بنشر مقالات في جريدة المنتج (لوپرو دكتور) كان يتقانى عنها بعض الدريهمات ولما أيس من بث افكاره بواسطة تلاميذه عمد الىلقاء محاضرات وابلن عن المحاضرة الاولى سنة ١٨٢٦ راجياً ان يصيب بذلك شهرة وان يفوز بنفع مادي يستعين به على حاجته وفقره وشجعه احد اصدقائه على ذلك بقوله « ان كثيرين يبحثون في آرائك وافكارك غير ذاكرك بشيء فاعلن انك انت صاحبها » فعمل فيلسوفنا بنصيحته وسمع المحاضرة الاولى رجالاً من جلة علماء فرنسا ونخبة ادبائها

وما كاد طالع السادة يسلم لكونت ويتحدث الناس باسمه وفضله حتى دامته الكوارث ففي بنزيف دماغي عقيب المحاضرة الثالثة لأن ثورة افكاره انعقدت بتأثره لشقاقه المائلي فأصيب بمرض عضال تدهام سنة فلما اخذ بالنقمة من مرضه فكر فيما آلت اليه حاله وابصر النعاسة آخذة بسبله فيش من الحياة يعزل الى الانحار غرقاً في نهر السين ثم عدل عن الانحار وبدأ يسترجع قواه العقلية والجسدية

وفي هذا الدور التمس عند لكونت عقد ديني ايضا غير ان ذلك لم ينج شيئاً من اختلال بينه وكان المرض قد اثر فيه تأثيراً شديداً فظهرت عليه امارات الجنون فقام الفلاسفة

من معارضي كونت يقبحون طريقته ويتخذون هذه الحادثة حجة على سخف رأيه وفساد تعليمه ويقولون ليس من العقل في شيء أن يبيع الإنسان مذهب مجنون وهذا تحامل مجرد بقصد منه تضييع تأثيره فقد أصيب نيوتن قبله بمرض دماغي فلم ينقص ذلك شيئاً من حرمة والا عجب بكتابه المسمى (برنسيب) الذي وضعه عقيب ذلك المرض وبعد أن استجم كونت قواه عاد سنة ١٨٢٨ إلى القاء المحاضرات ونشر المجلد الأول في دروس الفلسفة الموجبة سنة ١٨٣٠ بعد تعب كثير وعمل طويل بدأ سنة ١٨٢٦ ولم يكن عمله في المجلدات الخمسة التي تلتها أقل عناء فانه لم يتمكن من نشر المجلد السادس إلا سنة ١٨٤٢

كانت الاثنا عشرة سنة التي قضاهما الفيلسوف في التأليف سني خير وبركة علوه ذاق في خلالها السعادة المادية لأنه دعي في سنة ١٨٣٨ إلى امتحان الطلبة الذين يتوافدون من كل صوب إلى كلية باريس وانتدبه مدرستان كبيرتان لتعليم الرياضيات فأصبح دخله السنوي أربعمائة ليرة ولما كان عهد لويس فيليب دعاه الميوكيزويه رئيس الوزارة ليدرس تاريخ الفنون وقال له «إذا كان هناك أربع كراسي لتدريس تاريخ الفلسفة وجب علينا أن نخصص كرسيًا على الأقل لظهور العلوم المثبتة وارتقاها» فدل الوزير بذلك على ميله للفلسفة الحسية ولولا اشتغاله بما فوق الطبيعة أيضاً لتقدمت في عهده تقدمًا باهرًا

وفي كتاب أرسله كونت إلى زوجته ما يدل على رقة قلبه وسمو عواطفه فقد قال لها في ذلك الكتاب «لا أود أن أصف لك هنا الجبور الذي يغيض نفسي به لما أرى الشاب فاز في امتحانه وقرب من آمال الدهية أنت تضحكين من ذلك ولكنني لا أفاكك من أن أذرف دموعي»

وكان كونت يفكر دائماً في سعادة الآخرين ويسعى إلى منفعتهم بكل سبيل وهذا الاهتمام الدائم حمل على القاء الخطب والتدريس في المجتمعات العامة من سنة ١٨٣١ — ١٨٤٨ على ما كان يعترضه من الموانع وفي هذه السنة حدثت ثورة في باريس أظهر فيها كونت عطفه على المجتمع فقد كان يفضل السجن على الدخول في الفرق الوطنية التي ألفت يومئذ ومع أنه لم يدع الناس لحمل السلاح على الملكية فانه لم يقسم لها بمن الاخلاص ولم يكن كونت يتأثر من مشاهدة الروايات مع أنه كان كثيراً ما ينتاب الملعب فالمجمعات (تراجيدي) في نظره ظواهر مصنعة ليس فيها من الحقيقة الا ظل لطيف

فقل أكثراته بها وبأساها القصص المتعكة (كوميدي)

وقد كتب أحد تلامذته عن أحواله وصفاته الشخصية ما يأتي :

دقت ساعة لوكسبورغ الثامنة وكانت صدى صوته لا يزال يرن في الآذان حين فتح باب الغرفة ودخل وجل قصير النامة ممثلي^{*} الجسم نظيف الثياب ملتصق بمن في قص شواربه حتى لم يبق لها ظل وكانت يكتسي الاثواب السوداء ويتألق في ليله فكلا رأيتنه تحاله مدعوا الى وليمة وكانت عقدة رقبته لامعة كأن المنكواة مرت عليها حديثا فاقرب الرجل من اربكته المعدة له وراء المتضدة ووضع عليه السعوط أمامه وبعد ان استمد مرتين ومر القلم على الصحيفة ليرى ملته تسرع بكتابة الدرس بادئا فيه بقوله : كنا فلانا انه في مثلث غير معين كالثلث اب ج الخ .

ودام درسه ثلاثة ارباع الساعة والطلبة يدونون الموضوعات المهمة في مذكراتهم ليتكثروا من مراجعتها على حدة ثم سحب من جيبه دفتر آخر فاعاد تلاوة الدرس السابق وظل حتى الساعة التاسعة فتناول حقنه ونفض ما على معطفه من السعوط وكانت يده في جيب عطفه وفتح الباب وخرج بسكينة تامة .

قلنا آنفا انه نشر المجلد الاخير من فلسفته الموجبة سنة ١٨٤٢ وبينما المرء يقبيل عظم انكافاة التي يجب اسداؤها لهذا الفيلسوف على اثني عشرة سنة صرفها في الجهد والتعب المضنك يجد ان جزاءه كان تزايد المشكلات والخطوب التي تضيق الصدر وتضغظ على الفكر ففي تلك السنة تفاقم الشقاق بينه وبين زوجته فأدى الامر الى انفصالهما بعد ان خصص لها مائتي ليرة راتباً سنوياً وترى من العبث البحث في هذه المسألة لان احوال الزوجين الخاصة لا يطلع عليها حتى اخلاص اسدقائهما وظلت مادام كونت بعد الانفصال تفكر في سعادة زوجها ودامت المراسلات الودية بينهما مدة سنين

وأصيب كونت بحادثة ثلجية اثرت فيه وهو ان طابع المجلد السادس علق على الكتاب حواشي ينكر فيها حملة كونت الشديدة على اراغو فنضب الفيلسوف لذلك وخاسمه بلجاجة فرج دعواه

واشد المصائب التي نكب بها هو انه ذكر مخفيه للاشراف على الامتحان في المجلد الثالث بما لا يستحب فادى ذلك الى ضياع نصف راتبه الزهيد فضاق كونت بالعيش ذرعا وانبا بفقره صديقاه منذ بضع سنين وهو المترجميس استيوارت ميل احد علماء المنطق الانكليزيين الذي اثرت فيه افكار الفيلسوف واستمد منها معظم افكاره وآرائه في

أصول المنطق وقد كثرت مراسلات الصديقين ونشر جزء منها في المدة الأخيرة
فهاج رغبة الجمهور للاطلاع على سائرها

ولما انتهت إليه كتب الفيلسوف حاجت فيه الخاصة التي عرف بها من عطف الشديد
على الرجال العظام وراثته لشقايتهم فنهض الى مساعدته وطرق ابواب ثلاثة من اصدقائه
من اعطاهم لمساعدة الفيلسوف فعهدوا بتقديم مائتي ليرة له سنوياً وكان ذلك
سنة ١٨٤٥

ولم يوفق كونت لعمل شيء يدل على شعوره بحميل الانكليز فلما عاد اليهم ميل
في السنة التالية اعطاه الاول مبلغاً زهيداً ورفض الاثنان الاخران مساعدته قائلين
يجب على كونت ان يعول نفسه بنفسه فلما أخفق استيوارت في مساعدة صديقه بهذه
الوسيلة اشار عليه بكتابة مقالات للعنف الانكليزية وتعهده له بترجمتها فرنسي كونت
اولاً بهذا الطلب ثم عاد الى هوسه واغتراره فأخذ يتهم الانكليز بفساد الاخلاق مما
استخط استيوارت وباعد ما بين الصديقين حتى انتهى الامر بانقطاع المراسلات ومن
كلام كونت في هذا الصدد قوله : لماذا يترك الرجل بعد موته مبلغاً من المال لمشتغلين لم
يعرفه وهو لا يعد مساعدة الرجال الذين عرفهم في حياته فرضاً طيبياً ؟ ان الانكليز بين
صرحا انهما يخذلان فيلسوفاً لا يقولان بقوله والرجل يجب ان لا يتبل في انتشار
مبدأه الا مساعدة الذين يرثون رأيه وقبوله معونة من سواهم حيلة من قدره

وما زال كونت يدفع لامراته مائتي ليرة سنوياً من ١٨٤٥ الى سنة ١٨٤٨ إذ
هبطت رواتبه بدون سبب الى ثمانين ليرة ففتح الميسبوليتره وبعض الاصدقاء اكتباً
لمساعدته فجمعوا من المال ما وسع على كونت ردحاً من الزمن وقد كان في جملة
المشاركين بهذه الاعانة المستر ستيوارت ميل الذي لم يمنعه استيوارت من معاملته كونت
عن مساعدته واسعاها

ويرى المطالع ان كونت لم يتصرف مع اصدقائه تصرفاً يليق برجل عظيم مثله
لان نفسه جمعت الى خصاله الحميدة من رسوخ العزم وقوة الارادة والثبات والمثابرة على خدمة
البشر نقائص مشينة من الغرور والعجرفة وإذا جاز التمثيل شبهنا كونت ببروتوس وكانو
وإذا اراد الانسان ان يجب كونت وجب عليه ان يتصور حاله التعيسة
وحياته المظلمة وخطوبه المتواترة وهو بين هذه الظلمات دائب على انجاز مهمته
لا يكل ولا يفتني فما زال يركب الى غايته الخطوب حتى فاز بما اراد وكانت القوانين

الاساسية للعلوم الموجبة قبل عهده مطلقة، مبسطة، خجاء كونت، موضحاً لها بما يزيل الاشكال
 وبقية لها حدوداً بيّنة فكثير لذلك حساده ومزاحموه
 ولم يكن كونت يكتب كلمة قبل ان يقرر الموضوع ويكتبه جملة لجملة بعد تبييضها في ذهنه
 ومعنى فرغ من احضارها جلس يكتب ببراع سيال فيسجل سلسلة من الانكار تجري على
 اسلانه بدون انقطاع ولا تردد لقوة ذاكرة كونت واستغنائها عن العود الى المذكرات
 ولكن اسلوبه الكتابي لم يكن بالحلة اللائقة لافكاره البراقة واذا كانت الانشغال منه كتابة
 كالشعر في تأثيرها وسلاستها الا ان الكتابة في ارقى الموضوعات العلمية اذا لم تكن طلية
 مجها اكثر العلماء جلداء على الاستقصاء واذا قايسنا اسلوب كونت بغيره من الفلاسفة
 كهيوم وديدرو وباركله رأيناه ثقيلاً جافاً وربما وقعت في كتاباته على بعض العبارات
 المبتذلة الا ان جميع اصطلاحاته خالية من سلامة الذوق في الانقباض وقد كان يكتب
 من ادوات الحال في بعض الجمل حتى لا يثبت على مطالعته الا من أوتي الصبر الجميل
 من تلامذته ولكن قوة فكره ونفوذ نظره وسمو آرائه تشرع له السبيل الى ذهن
 القاري وتستر هذه النقيصة وتضعف تأثيرها واذا كانت مؤلفاته عظيمة فاسلوبه لا يوفق
 جزءاً من تلك العظمة القائمة بآهية الافكار والمثثلة رجاحة العقل الذي اوجدها
 وركاكة اسلوبه ناشئة عن عدم مطالعته مؤلفات بلغاد الكتاب فهو لم يقرأ الا غلباً كان
 يسميه علم حفظ الصحة الدماغية وقبل ان يتم فلسفته الموجبة لم يطالع سوى دواوين
 اثنين او ثلاثة من المراء في مقدمتهم دانتي واهمل ما سوى ذلك حتى قراءة الرسائل
 والمجلات ولكن اصدقاءه كانوا ينبئونه بكل حادثة جديدة في عالم الفن فأدى هذا
 الانقطاع الى تحرير نفسه من قيود الاجتماع والمؤثرات وظلت افكاره بمنزل عن
 الاعتبار الخارجية واذا كان افاده من هذه الوجهة فقد اضره من الوجهة الاخرى
 فافترق في اهماله وضعف شعوره بالعالم الخارجي وقد وضحت فيه هاتان النقيضتان في
 اواخر ايامه

وقبل ان تتم ترجمة كونت تسرد حادثة جرت له سنة ١٨٤٥ يوم تعرف الى
 مادام دي ثو:

كانت هذه العقيلة ايماً لأن زوجها حكم عليه بالسجن المؤبد ولا تعرف الا اليسير
 عن اوصاف المرأة واخلاقها وكل ما تمله هو انها وضعت قصة رفعتها في عيني كونت
 الى مستوى مادام جورج ساند ولم تكن هذه النصبة في ذاتها شيئاً يستحق الذكر، لا انها

دلت على ذوق سليم وفطرة حميدة فتوثقت بينهما روابط الولاء واصبحت العقيلة عزاء في احزانه وافاضت على نفسه روح الهدوء والسكينة ولو طالت مودتهما لم يظهر اضطراب الفكر في كتب كونت الأخيرة الا ان الاقدار التي ناصبت الفيلسوف طول حياته تجعته برحمة نفسه وموضوع سلوته سنة ١٨٤٦ فجزع لفقدنا جزءاً شديداً ولازمه الحزن والنم فكان يخرج الى شربها مساء كل اربعاء اذا توارت الشمس في الحجاب ببلله بقطرات دموعه ويحبو في البهار ثلاث مرات احتراماً لذكرها فيستغرق في احزانه ويستسلم الى الجزع وكان تلامذته يقولون انه يقدم لها من الاحترام ما تقدمه دائتي لحبيبتة بانريس ويشبهون حاله بحال دالابر بعد وفاة لينياس

الباحثون في حياة كونت ينقسمون الى شطرين احدهما يمتدحني تعرفه الى العقيلة دي ثو والآخر بعد ذلك ويفرقون بين الشخصين كونت الذي كتب الفلسفة الموجبة وكونت الذي ألف في السياسة الموجبة الا ان اعداءه يأبون كل تقريب في هذا الصدد ويقولون ان المختل الذي كتب في السياسة هو نفسه الذي كتب في الفلسفة

ولم يكن كونت يلتقي من نشر فلسفته الموجبة حتى بدأ بنشر سياسته وهذه بالطبع تسند الى تلك فنشر المجلد الرابع والاخير في سنة ١٨٤٨ وفي هذه السنة حدثت ثورة في فرنسا لم تبد طلائعها حتى هرع كونت الى تأليف جمعية ديهها الموجبة توقع ان يكون لها من الشأن في هذه الثورة ما كان لنادي الجاكوبيين في ثورة ١٧٨٩ واذا كان كونت لم يدرك جميع آماله في انشاء هذه الجمعية فقد ادرك بعضها باجتماع تلامذة الفيلسوف ووضعهم مذهباً فلسفياً جديداً كما بهوى ويختار

وكان كونت سنة ١٨٤٩ و١٨٥٠ ياتي في النصر المدي (باله روبال) في باريس محاضرات متتالية يحضرها عامة الناس وخاصتهم فيبحث في فلسفته ومعتقداته ودعاويه وقد ختم محاضراته الأخيرة بقوله :

« باخدمة البشرية والفلسفة والحقيقة يجب ان نتولوا زعامة العالم لأن ذلك حقكم الصريح واقصى اماني الانسانية تأليف حكومة اخلاقية مادية فكرية فان الحكومات التي قامت على دعائم الكدكة والبروتنتائية سقطت لان اناس اتخذوها وسيلة لاضرام الثورات وقضاء اللبانات »

ومن غرائب الاتفاق ان يقوم بعد هذه المحاضرة ببيعة اسابيع رجل يدعى الناس الى طاعته لا لخدم الانسانية بل لدعواه انه صاحب الحق بالسلطة المطلقة وان يحمل

الناس على معرفته كذلك بالقوة الفاعلة

وسنة ١٨٥٢ نشر كونت رسالة في مذهب الانسانية اظهر فيها ارتياده الى ضربة لويس نابوليون للحكومة وانشائه جمهورية هوفيهما الحاكم المطلق ومهما يكن من قيمة الفكر السياسية نجد عذراً لكونت في انه كتبه وهو لا ينتظر ان تؤول الحال لما آلت اليه من الضغط والاستبداد والحكم المطبوعات

وأصيب كونت سنة ١٨٥٧ بداء السرطان وقضى في خامس عشر ايلول فانتهت حياة مرة تنكر لها الزمان وفي هذا اليوم من كل سنة يجتمع تلامذة الفيلسوف من انكليز وفرنسا وبين فنيهون بذكره ويقومون براسم سنوها لانفسهم وقد قبض كونت وهو دون الستين وهتلا ببعنا الا ان نشارك جون دورلي في حزنه لعاقبة من اشد عواقب العمر ايلاماً وهي « ان يقضي ارباب الذكاء الحارق في تهالكهم على نشر افكارهم قبل ان يدركوا امانيهم وتنفاد لم رغباتهم »

« فلسفته »

لا نعرف المقادير الا قياسها وقياها تواتر بتجليل في الغالب وبسط الشواهد ما يترضاه من المصاعب في قياس طول بالوحدة المترية اذ يشترط في صحة القياس ان يطابق المتر على السطح كل الانطباق وادنى تنوء او غور يخل بالاستواء بعيد هذا القياس متعذراً تلك اهون المصاعب تعثرنا في اقل البساط فكيف بها في ارق المركبات كتقدير الابعاد بين الاجرام السماوية

ذاك ما قاد الفكر البشري الى وضع العلوم الرياضية فاذا تعذر او استحال علينا ان نقيس مساحة او نندركية مباشرة توصلنا الى ذلك بالطرق الرياضية فجمعنا بين مالا يقاس تواتر وبين ما يتناس واستخرجنا الاولى من الثانية على قاعدة التناسب

فلكي نقيس مساحة فنقلها بشكل هندسي كالثلث مثلاً ونعتبر المناسبة بين الاضلاع والزوايا فنسهل علينا معرفة المساحة بهذه الوسيلة وبغيرها من نوعها تمكن الفكر البشري من تقدير الابعاد بين اجرام السماوارفق الى معرفة مجموعها واشكالها الحقيقية وظواهرها الطبيعية وسعتها وامتدادها وقوة جاذبيتها الى غير ذلك من المعلومات التي بلغها بالوسائل الرياضية وغرض الرياضيات مقايسة الكميات وتقديرها بالواسطة وذلك يدرك بمعرفة النسبة بينها فالرياضيات اذن علم تستخرج بواسطته الكميات المجردة من الكميات المعروفة

للتناسبات الصريحة الموجودة بينها

ما هي الكمية ؟

عرف الرياضيون الكمية أنها ما يقبل الزيادة والنقصان ويمكن تقديره بالوحدة القياسية^(١)

فالعدد والطول والسطح والحجم والزمان والمكان وسرعة الجسم ووزنه وغيرها من الأركان الداخلة في الحوادث الطبيعية هي كميات تتوفر صفتي الكمية فيها وقد اكتفى الرياضيون بالعلوم النسبية فلم يخطر لهم ذات يرم أن يحثوا في ماهية المكان والزمان والمادة لأنها الأسس التي تقوم عليها المعارف البشرية فليس في الوسع أن تثبت أو تعرف ولهذا السبب حصر الرياضيون مهمهم في كشف النواميس التي تؤثر في هذه الكميات وأظهار النسبة بين ما اجتمع منها في حادثة واحدة بدون أن يحاولوا بلوغ معلومات مطلقة

والرياضيات تثبت لنا أن في وسعنا استخراج بعض الكميات الداخلة في إحدى الظواهر الطبيعية من البعض الآخر إذا لابد من وجود روابط بينها ولم يشهد الناس حتى اليوم ظاهرة فقدت فيها هذه الروابط ولكنها قد تدق حتى بتعذر على الباحث اكتشافها إذا ابتدأنا بكلمة « كميات » في تعريف الرياضيات بكلمة « حوادث » كان لنا تعريف العلم الحقيقي فهو ما ارضع بعض الحوادث ببعضها الآخر مستنداً في ذلك على العلاقات الموجودة بينها . وكل علم يجمع طائفة من الحوادث ويوآف بينها ويستخرج من جمعها نواميس عامة ويضع قواعد إذا جربنا عليها عرفنا نتائج حادثة بقياسها على حادثة ثانية من نوعها فإذا عجز عن ذلك لم تصح تسميته علماً

ثم أننا إذا جعلنا كلمة « النواميس الطبيعية » بدلاً من « العلاقات بين الحوادث » كان ذلك أصح وقد خدمت الرياضيات في تعيين هذه العلاقات فوق خدمة كل ما سواها من العلوم فهي تدلنا على أقصى ما يراد بالعلم وإذا شئنا أن نفع على فكر صحيح في تحديده وجب علينا الرجوع الى الرياضيات فإن الأصول العامة التي يقتضي أن يسري عليها الفكر في

(١) زاد المتأخرون الشرط الثاني من شروط الكمية أما المتقدمون فقد اكتفوا بالشرط الأول فكانت صلاية الجسم في عرفهم كمية لأنها تقبل الزيادة والنقصان إلا أنها ليست كذلك عند المتأخرين فمع أن الاجسام تختلف في الصلاية إلا أن هذه الصلاية لا تناسب بالوحدات

الابحاث لانصادفها في غير الرياضيات وليس من علم آخر يثابتي حل المسائل حلاً تاماً يقضي الى استخراج النتائج بدقة وضبط . هذه هي النقطة التي بدأ منها مذهب الكونتيزم لواقعه اوغست كوت

استبط الفيلسوف التحديد العام للعلم من الرياضيات واقتبس منها الاصول التي يجب ان يجري عليها في الابحاث العلمية اما اساس فلسفته فهو : ان الحوادث ^(١) كافة تجري على قوانين مقررّة والعقل البشري يعجز عن معرفة منشأ الحوادث الاولي ومنتهاتها الايدي وهذه حقيقة لا يكرها من كان ذا مشاركة في العلوم الطبيعية لأنه يعلم ان الغاية من ايضاح الحادثة الطبيعية ليس الا اظهار الاحوال والشروط التي يمكن معها حدوث مثلها وتعيين علاقتها بغيرها من الحوادث واليك مثلاً على ذلك

اكتشف نيوتن الجاذبية العامة فوضح بها جميع الحوادث الفلكية وبين ان كنهها من الحوادث التي كان الناس يتوهمون ان لاعلاقة بينهم كالخسوف والكسوف والمد والجزر انما هي مظاهر مختلفة لحادثة واحدة عامة كما تعبر عنها بالثقل فبتنافس جميع الحوادث الفلكية بالجاذبية العمومية ولكننا نجزع عن معرفة ماهية الجاذبية وعلتها الاصلية فاذا سألنا في ذلك لم يكن عندنا جواب وليس هذا كل ما في الامر بل ان الفلسفة الموجبة تثبت لنا ايضاً اننا ان نستطيع ادراك ذلك فملينا ان نخلى عن هذه المباحث لعلماء مانوق الطبيعة فاذا قال قائل ان اعتزازات الجواهر الفردية بسبب ذلك الثقل لا يكون قد اوضح مبهماً لان الاشكال ينتقل من الثقل الى الاعتزازات فلا يلبث المستطلع ان يسأل عن سبب الاعتزاز ايضاً

اذا اردنا ان نفهم الصفة المميزة للفلسفة المثبتة وجب علينا ان نتبع الفكر البشري في ادوار ارتقائه وقد وضع كوت لذلك قانوناً عاماً اقضته بصعته معلومات العصر الحاضر وشهادات العصر الماضي

وهذا القانون هو ان كل فرع من المعارف يمر في ثلاثة ادوار متعاقبة او حالات مختلفة اولها « الدور الوضعي » والثاني « الدور المجرد » والثالث « الدور المثبت » ^(٢)

Etat fictif, Etat Abstrait, Etat positif.

(١) ليس المقصود بالحوادث هنا الحوادث الطبيعية فقط بل ربما شملت الحوادث الاجتماعية

(٢) ودعاً ايضاً, Etat kher - logique, métaphysique, scientifique

ونكتفي بذكر هذا القانون بدون أن نتقدم الى اثباته او معرفة نتائجه
 شبه كونت الفكر البشري بمخوضه لنواميس الارتقاء وحالاته الثلاثة التي تتعاقب
 عليه بالانسان في ادواره الثلاثة من طفولة وشبابية وهرم
 ونشأت ثلاثة مذاهب مختلفة لايضاح الحوادث في الادوار الثلاثة اولها « الفلسفة
 الوضعية » والثاني « الفلسفة المجردة » والثالث « الفلسفة الموجبة » والاول مبدأ ارتقاء
 الفكر الانساني والثالث غاية ما يبلغه والثاني الحلقة المتوسطة بين الاثنيتين
 اتجه فكر الانسان في الفلسفة الوضعية للبحث في اسباب الحوادث الازلية وغاياتها
 الابدية فتتلى تلك الحوادث آثاراً من فواعل ذات ارادة مطلقة يمزو اليها كل ماشاезде
 بدون ان يفكر في النواميس والسنن

وارتقت هذه الفلسفة فبدأت الفلسفة المجردة التي افلمت « القوى المجردة » مقام
 الفواعل الوهمية وهذه القوى عارية من الهيولى تسبب الحوادث المشهورة
 اما الفلسفة المثبتة فقد اقتنع واضعوها ان الفكر الانساني يستحيل عليه ان يدرك معلومات
 مطلقة فصرخوا نظرم عن البحث في منشأ الكائنات ومصيرها وقصروا مهمهم على
 معرفة نواميس الحوادث فزحوا بين المشاهدات والمحاكمات العقلية لاكتشاف هاتيك
 النواميس

لما ارتقت الفلسفة الموضوعة حتى قال الناس باله واحد بدبر الكون بلغت اوج
 الكمال وغاية الارتقاء وادركت الفلسفة المجردة نهاية شوطها عند ما ردت الحوادث الى
 الطبيعة ودعتها بالقوة العامة المجردة

اما الفلسفة المثبتة فهي تسعى لتوضح ان جميع المحسوسات ظواهر مختلفة لحادثة عامة
 فتسري لها ذلك بلغت ارقى درجاتها على ان هذا الارتقاء غير متيسر في الاحوال
 الحاضرة ولاتدل ظواهر الحال على امكان ذلك في المستقبل ناذا استطعنا ان نفسر
 حوادث النور والحرارة والصوت والكهربائية وشيئاً من حوادث المغناطيسية بقولنا انها
 نتيجة تموجات فاننا لانتطيع ان نفسر الحادثات العقلية على هذا الوجه والفلسفة المثبتة
 جاهدة في اظهار العلائق بين الحوادث او القوانين الطبيعية وصفتها المميزة صرف الفكر
 البشري عن البحث في ماهية الحوادث لأنها لا تخوض في هذا البحث بل تدعه الى
 الفلسفة المجردة التي توضح الأزل والأبد بسهولة تامة وتستقصي الاسرار الملوية حتى
 ادق حقايها

بمساهل القاري' بعد ان عرف غاية الفلسفة الموجبة عن الحد الذي بلغته وعلى اي شيء يتوقف اكملها وما نحن متطرقون في بحثنا الى ذلك
لم تمر المعلومات البشرية في الادوار الثلاثة بسرعة واحدة ولا ادركت الحال الثابتة في آن واحد بل كان امرها الى ذلك الحوادث الفلكية اساطحتها وسهولتها وتلتها الحوادث الفلسفية فالكميوية فالعضوية

ويتعذر علينا تعيين بدء انقلابها على التدقيق ولكننا نعلم انها اخذت بالارتفاع منذ انشئت دور العلوم في اثينا والاسكندرية ومنذ حمل العرب العلوم الطبيعية الى غربي اوربا وارشدوا اهلها الى نواميسها وما زالت تسكامل وتندرج في مراتب الارتفاع حتى نبلغ باكون ودبكارث وكيلروغاليله فأثرت ماتبيهم في الافكار البشرية تأثيراً شديداً ووضعت أسس الفلسفة الموجبة التي بدأت بالانتشار والشيوع منذ ثلاثة عصور ولكنها لم تحط بكل انواع الحوادث فن هنالك نوعاً لم تذكره وهو الحوادث الاجتماعية

هذه الحوادث لا تنزأ بحجة النوايس كثيرة الابهام لم يكشف عن اسرارها الغطاء ولا استطاعت العلوم ان تحصرها تحت قوانين عامة وقد وضع الفكر البشري علم الميكانيكيات والحيوان والنبات وحان الزمان الذي يضع فيه علم الاجتماع فكان كوت اول من سمى به افكاره نحو هذه الغاية فرمى اليها في موسوعات مجلداته الستة التي اودعت لمخص المعلومات البشرية لان كوت لم يقصر همه فيها على الفلسفة الاجتماعية بل تعمده تدوين الفلسفة الموجبة فبحث في كل علم الى حد اظهار علاقته بغيره من العلوم واطهر تدرج كل منها في الارتفاع ودخوله في الدور الموجب وجعل اساس بحثه تمايز الحوادث وارتباطها المنطقي فقسم العلوم الى ستة فروع كبرى تنضوي تحتها فنون مختلفة واليك هي :

(١) ٠ — الرياضيات (mathématiques)

(٢) ٠ — الحياة (الفلك) (Astronomie)

(٣) ٠ — الفلسفة الطبيعية (Physique)

(٤) ٠ — الكيمياء (Chimie)

(٥) ٠ — الفلسفة العضوية (Physique organique)

(٦) ٠ — الفلسفة الاجتماعية (Physique sociale)

وقدم كوت العلوم الرياضية بالذكر لأنها اقدم العلوم الموجودة واكملها وهي

أول ما دخل في الفلسفة الموجبة وقد راعى كوت في ترتيب هذه الفروع تاريخ ثبوتها وما لاربع فيه ان الرياضيات بدأت مثبتة وما زالت ترتقي من اقدم عهدها الى اليوم وتلتها الميأة فالفلسفة الطبيعية فالكيمياء فالحكمة المصنوية رقي بها الى هذه الدرجة ككل وغالبه ولا فوزيه وبانويل اما الفلسفة الاجتماعية فانت كوت حبا لم تؤسس بعد . واختلفت الفنون في بلوغ هذه المرتبة لتفاوت درجاتها في السهولة فكان ابسطها اقربها الى الثبوت .

وشرع كوت يفكر بعد ذلك في تعاقب هذه الفنون وارتفاعها من ابسط النظريات الرياضية الى ارق التصورات الاجتماعية فان ذلك الاستقصاء انما هو لتتبع ارتفاع الفكر البشري والحوادث تجري على تسلسل طبيعي وهذا التسلسل هو بمثابة رابطة عامة بين النظريات المثبتة في الفنون المختلفة ورأى كوت ان بعضها يجب ان يكون له تأثير في الآخر لجعل العلوم الرياضية اول حلقة من السلسلة لأنها فعلت فيما بعدها لتزقيته الى مرتبة الثبوت وجعل الفلسفة الاجتماعية الحلقة الاخيرة

فليس كوت بين الفكرين الرياضي والاجتماعي فلم يجد ممدوحة عن ان ينفذ الاول دليلاً على نظريات الثاني المثبتة حتى اذا امكن حصر الارتفاع البشري تحت قوانين معينة استبدل الرياضيات بالفلسفة الاجتماعية لأنه وجد الاولى غير كافية لتأسيس فلسفة حقيقية تامة حتى قال : ان ما بذله المفكرون من المساعي في العصور الماضية لايجاد فلسفة جديدة نحل محل الفلسفة الموضوعة ذهب ادراج الرياح لان الذين حاولوا ذلك ارادوا ان يخذلوا الرياضيات ركناً وينشئوا مذهبهم باختلاف طفيف او كبير واذا امكن انتباس حقيقة من الرياضيات فلا يمكن التوسع في ذلك الفكر وجعله عاماً فان الحوادث الرياضية التي خضعت لقوانينها (الهندسة والميكانيك) هي في غاية السذاجة فلا يمكن تطبيق شرائعها على المركبات وكثير من الرياضيين في عصرنا الحاضر يقولون ان غرائب الحوادث الفلكية والحوادث الاجتماعية الناتجة عن ارادة البشر وقدرتهم غير خاضعة لنواميس معينة

في الفلسفة الحسكية والكيمية لانجد خوارق مما يجعلنا على القول ان جميع الحوادث هي ذات سنن مقررة لا تنبذ ولكن الحوادث المبهمة المغلفة لا يظهرها على هذا الشكل الا لفلسفة الاجتماعية فارجع لدى كوت ان يتم مذهب على نقطة اجتماعية وصي في كشف النواميس الثابتة لهذه الحوادث وقد كان الباحثون قبله يستندون الى افتراضات او يستبينون

بفلسفة ما فوق الطبيعة فاراد كونت ان يجرد البحث مما يخامره من الاوهام ويدخله في حال مثبته

وكان كونت يقول بحرية الوجدان المطلقة يريد بذلك ان كل فكر وكل تعبير يعمل للافصاح عنه يجب ان يعنى من كل انواع الجزاء من التنبية البسيط الى الحكم بالجناية وتبسط في القول على ذلك حتى ادعى ان ليس من حرية وجدان في الحياة والحكمة والكيمياء والفيسيولوجيا لان المرء اذا لم يقبل مبادئها الاساسية اتهم بالهوس وليست الحال كذلك في الاجتماعيات لان المبادئ القديمة قد اضمحلت ولم تخلفها بعد مبادئ جديدة

اما اصول علم الاجتماع فكانت كغيرها من الاصول العلمية تستخلص من التجارب والملاحظات على سبيل القياس والاستقراء فيطالع المستقري^٤ حوادث بسيطة يضع لها النواميس ثم يترقى الى الحوادث المركبة بطريق القياس فيستخرج قوانينها اذ ليس سيف وسع الباحثين استنباط القوانين العامة مباشرة من ملاحظة الحوادث المركبة ولكن كونت لاحظ ان الحال في العلوم الاجتماعية ليست كذلك فان حوادثها البسيطة تتألف من افعال الافراد وحواسم ونواميس هذه لا تختص بها بل تشمل الطبيعة البشرية ذاتها والحوادث الاجتماعية انما هي نتائج تلك البسائط

وقد كان العلماء الى عهد كونت يحاولون اخذ العلم الاجتماعي المثبت من قوانين الطبيعة البشرية العامة ثم يجعلون الوقائع التاريخية دليلاً على صحة تلك الاستنتاجات فرد كونت هذه النظرية وقال اذا دلت القوانين العامة على ما لا يورده شاهد من التاريخ وجب علينا ان نحكم بفساد التاريخ واختلاله لان صفحانه الاولى مهزعة وكما اعرق الناس في الحضارة ازدادوا دقة في تدوين الحوادث واذا كان التاريخ يدلنا على مجرى الرقي البشري في غير العصور فهو لا يوجب اتخاذ ذلك المجرى سناً ولا يضع قانوناً فقي شئنا معرفة القوانين تعين علينا ان نعود الى علم النفس (البيكولوجيا)

ان قوانين الطبيعة البشرية العامة هي في جملة وسوعات علم الاجتماع غير انها تختلف في استعمالها عن القوانين في العلوم الطبيعية فان التجارب الخصوصية في هذه تؤدي عن طريق القياس الى استخراج القوانين العامة وفي العلم الاجتماعي تبلغ التاموس العام من التجربة الخاصة ثم نستخرج عن طريق القياس نتيجة تؤدي صحة

والفلاسفة الذين اشتغلوا في نظريات الاجتماع لم يكونوا يعتبرون التاريخ سلسلة

من الاسباب والنتائج بل كانوا يثقلونه كفافيص متفرقة لا رابطة بينها - حتى جاء كونت فيبين فساد مزاعمهم في هذا العدد وجعل التاريخ من اكبر ما أخذ العلم الاجتماعي وحيث رأى حادثة شذت عن قوانين الطبيعة البشرية حكم باختلال تدوينها

والخلاصة ان اوغست كونت وضع اصول العلم الاجتماعي - كما قال استوارت ميل - واذا كانت لم يوجد ذلك العلم فانه حيا من بعده من الفلاسفة قوة لا يجاده وفلسفته المثبتة في العلوم الطبيعية واصول التحليل التاريخي ستخلد اسمه بين مشاهير الفلاسفة دمشق : جرجي الحداد

مشاهير العرب والصناعات

وليس على عبد نبي نقيصة اذا صحح التقوى وان حاك او حجم
(ابو العتابة)

ينوم بعض الكتاب ان العرب اعملوا الصناعات بل استكفوا منها لانهم لم يقولوا (آل الحائك) خشية تحقير المضاف والحقيقة هي ان قدماء العرب لم تنصرف افكارهم الى الحياكة في زمان بداهتهم لانهم لبسوا جلود الحيوانات وابتاعوا من وجات غيرهم فلم يثقفوا الحياكة على انهم عرفوها بعد ذلك واشتهروا بكثير منها ونقل الافرنج عنهم ما تفتنوا فيه منها مثل الموركو والكوردو فان لنوعين من الجلود التي دهنها العرب الاول في مراكش والثاني في قرطبة . والدامسكو للشيح الدمشقي المشهور . والدامسكين للقرصيع المعدني الدمشقي والموصلين لتبيج عرفت به الموصل وصناعة الشفار والسيوف التي اخذها من دمشق الى غير ذلك مما لا يحصى . ولم تألف كثيرة في الصناعات يحضرني منها الآن اسم رسالة للكندي في المعادن والجواهر وانواع الحديد والسيوف وجيدها ومواضع اتساعها . ورسالة اخرى في ما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تنكسر ولا تتكل للكندي ايضا . وغيرها كثير لا محل لذكره الآن . ولقد ذكر جاهليو العرب بعض الصناعات في اشعارهم مثل قول طرفة بن العبد البكري من معلنته مشبها الناقة :

كقنطرة الروي أقسم ربهما لنكتفن حتى تشاد بقرمه

وقوله :

وخد كقرطاس الشامي ومشفر كبت النجاني قد له لم يحرد
وقوله :

وعينين كالماويتين استكتتا بكفي حجاجي صخرة قلته مورد
ومن اقدم صناعاتهم الغزل وقد ذكره كثيراً في اشعارهم مثل قول النابغة :
وعريت من مال وخير جمعه كما عريت مما تمر المغازل
وهذه الصناعة عرفت قديماً وذكرها كثير من الاعاجم مثل قول هرويرس في
الايادة بلسان هكطور بطل تروادة عند تدبير زوجته اندروماك وطلبها منه ان
لا يسير الى الحرب من موشع بليغ :

ولكل عمل فامضي كفي واشغلي اعمال ربانت السديل
فلك النسج وفتل المغزل وانا اعمال سمر الذبل
ووصف هيلانة تطرز بابتها في قوله :
وجدتها بالصرح تنسج ثوباً بجواشي البرفير والارجوان
ويرأس الخطاط ترمم فيه واقعات ابلت بها الفشان^(١)
وقال ابو العلاء المعري^(٢) في النساء :

علموهن الغزل والنسج والردن م وخلوا كتابة وقراءه
وقال ندم ملتن كبير شعراء الانكليز ما يقرب من هذا الى غير ذلك

وفي صدر الاسلام اعتبر الخلفاء الصناعات بدليل قول الامام عمر بن الخطاب :
« اني لأرى الرجل فيعجبني فأقول له حرفة فان قالوا لا سقط من عيني » وقول موسى
الهادي الخليفة العباسي لامة الخيزران لما استبدت بالامر وكثر المختلفون اليها لقضاء
امامهم : « ما هذه المواقب التي تغدو وتروح الى بابك . امالك مغزل يشغلك او مصحف
يذكرك او بيت يصونك » . وكثيراً ما ذكر الشعراء بعد ذلك الصناعات ولو على سبيل
الحجاز مثل قول ابن نباتة في الطي والنشر :

لا تنخب عيلة ولا تنسج فقراً يا كثير المحاسن المختاله
لك عين وقامة في البرايا تلك غزالة وذبي فتاله

(١) هذه الايات من الاياد العربية بقلم سليمان افندي البستاني

(٢) راجع ترجمة المعري في السنة الماضية ، الخامسة) من مجلة المقتبس بقلم كاتب

وانقد مارس الخلقاء والتجارية والامراء والاشراف والائمة والعلماء على اختلاف طبقاتهم ولم يكن منهم وازمنتهم صناعات كثيرة جمعت الآن منهم ماوصلت اليه يد البحث تذكرة لقوم يعقلون :

كانت ابو بكر الصديق وعثمان بن عفان وطلحة بن الزبير وعبد الرحمن بن عوف بزازين وعمر بن الخطاب دلالاً فتاجراً . والوليد بن الخيرة وابو العاص اخو ابي جهل حدادين . والنضر بن الحارث عواداً يضرب بالعود . والعاص بن وائل السهبي ييطاراً يعالج الخيل . وابنه عمرو بن العاص جزائراً ومثله الامام ابو حنيفة وقيل كانا خزازين ببيمان الخز (وهو الثياب يقع في التصحيف) . والزبير بن العوام خياطاً ومثله عثمان بن طلحة الذي دفع له النبي مفتاح الكعبة وهكذا فيس بن عزيمة . وكان مالك بن دينار ورافاً والمهلب بن ابي صارة بستائياً . وقتيبة بن مسلم الذي فتح بلاد الجهم الى ماوراء النهر جملاً . وعقبة بن معيط سخاراً وسعد بن ابي وقاص باريّاً للنبال . وابو سفيان ابن حرب يبيع الزيت والادام . وعبدالله بن جندعان غلاماً يبيع الجوارى . والحكم ابن ابي العاص خصاء يخصي النعم ومثله حريق بن عمرو الضحاك بن قيس الهفري وابن سيرين

وكان سفيان بن عيينة معلماً ومثله الضحاك بن مزاحم وعطاء ابن ابي رباح والكنيت الشاعر والحجاج بن يوسف الثقفي الشهير وعبدالحيد بن يحيى امام المتوسلين وابوعبيدالله القاسم بن سلام والكسافي مؤدب الامين والمأمون وكثير غيرهم ممن مارسوا التدريس والتهديب وكانت هذه الصناعة تسمى عندهم صناعة الاشراف . وكان ابو يوسف الفقيه قصاراً (يبيض الثياب) وابو العتاهية الزاهد يبيع الخغار في الكوفة فسمي الجرار . وابو تمام الشاعر كان سقاءً وقيل خادم حائك . والمنبي بن سقاء في الكوفة . والعكبري في اول امره منجماً ثم صار نحوياً . وحماة بن محمد الشاعر باري نبال . وابو اسحق ابراهيم الحصري كان يعمل الحصاراً يبيعها وابو اسحق ابراهيم بن محمد الزجاج القوري كان يخرط الزجاج وابو الحسن السري الرفاء الشاعر كان يرفو ويطرز وابو بكر عبدالله القفال المروزي الفقيه يعمل الاقفال . وابو الحسن الماوردي الفقيه كان يبيع ماء الورد . وابو الحسن علي بن هلال كان ابوه براباً فسمي بابن البواب . وابو القاسم الزاهي الشاعر كان قطناً (يبيع القطن) . واحمد بن محمد الطوسي الغزالي واخوه الامام الغزالي الشهير كانا من وبين الى عمل الغزل على طريقة النسبة عند الخوارزميين اذ يقولون القصارى والعطارى في القصار والعطار .

وابو بكر ازهر بن سعد السمان الباهلي البصري كان يبيع السمح . وابو غالب تمام النياقي اللغوي
القرطبي كان يبيع الثين . وابو القاسم الجنيد لقب بالخزاز والقواريري لانه هو عمل
الخز . ووالده عمل القوارير . وابو علي الحسين الكرايسي البغدادي نسب الى بيع
الكرايس وهي جمع كرايس بالفارسية بمعنى الثياب الغليظة وهي اشبه بالخام عندنا . وابو
محمد بن مسعود الفراء البغوي الفقيه كان يعمل الفراء وبيعها . وابو مغيث الحسين بن
منصور الحلّاج الزاهد حليج القطر . فتنسب اليه . ومؤيد الدين الطبراني نسب الى
كتابة الطغراء . وابو عمارة حمزة بن حبيب الزيات باع الزيت ومثله كثيرون لقبوا
بلقبه مثل محمد بن زبات وزير المعتصم وغيره . وابو عمرو خليفة بن الخياط العسكري
نسب الى الخياطة والصنع بالعصر . وابو المعالي سعد بن علي المعروف بالحظيرسي
(بالطاء المشالة) الوراق لقب بصناعته دلال الكتب . ورشيد الدولة فضل الله الهمداني
طبيب خريزنده الثوري كان في اول عمره عطافاً فصار يدبر ممالك القتر . وابو منصور عبد
الملك الشعالي نسب الى خياطة جلود الثعالب وعملها فراء . وابو القاسم عثمان الانطاقي
الغتيه كان يبيع الانطاخ وهي البسط التي تفرش . وابو عمرو عثمان بن الحجاب كان
والده حاجباً للامير عز الدين موسك الصلاحي . وابو الحسن علي بن عبد الله
السمياني اللغوي نسب الى السمس . وابو الحسن علي بن الحسن الفانسي الملقب بالخلعي
كان يبيع الخلع لاملاك مصر . وابو الحسن بن وصيف المعروف بالناني . الاصغر
كان جده وصيف مملوكاً وابوه عبد الله طياراً وهو حلاله اسبه عامل الحلّي النحاسية
للتزين . وابو القاسم عمر الخرقى الغتيه نسب الى بيع الخرق اسبه الثياب البالية . وابو
القاسم عمر بن محمد المعروف بابن البزري نسب الى عمل البزري وبيعه والبزري عندهم اسم
للدهن المستخرج من حب الكشكاش وبه يستصحبون اي يسرجون المصابيح . وكان ابن
سيد بن المشهور بتعبير الرويا ابن صانع قدور من نحاس . وابو عمرو المطرزي البارودي
غلام ثعلب كان مطرّزاً . وكان والد البحراني الشاعر الاربلي تاجراً يتردد الى البحرين
ويعيد الاالي من مغاوصها . ونظر الملك وزير بها الدولة بن عضد الدولة البويه
كان ابن صيرفي . وابو بكر الرازي الطبيب كان في اول امره مفتياً عواداً . وابو الحزم
مكي الضرير المغربي النحوي كان ابن صانع انطاخ . ونصر الخبازي الشاعر كان يخبز
ارغفة الارز بمربد البصرة . وابو الفرج محمد الغساني الملقب بالوراء كان منادياً في دار
البلطنج بدشق ينادي على الفواكه . وكان يشار ابن برد الشاعر الشهير ابن طيان حاذقاً

بصناعته واخوانه بشر وبشير كانوا قصابين . وفنيان الشاغوري لقب بالمعلم لانه كان يعلم اولاد الملوك . وابو محمد القاسم الحريري نسب الى بيع الحرير او عمله . والقاضي ابو بكر محمد الباقلاني البصري نسب الى بيع الباقل . وابو الحسين الجزار الشاعر المصري تعاطى الجزاره . وسراج الدين الوراق الشاعر الوراقه . وابو الفضل بن عبد الكريم الحارثي القمشي لقب بالمهندس لحذاقته في الهندسة وكان في اول امره نحات حجارة ونجاراً واكثر ابواب البهارستان التوري الذي بناه نور الدين بن زنكي الملقب بالعدل في دمشق من نجارة وصناعته وقد درس اقليدس على نفسه واصلى الساعات في جامع دمشق وكان له على مراقبتها راتب خاص . وابو زكريا يحيى البياهي الاندلسي الطيب قطن دمشق وعرف النجارة واشتغل الآلات الهندسية وكانت عموماً وعمل الارغن . والبديع الاسطرلابي كان يعمل الآلات الفلكية ولا سيما الاسطرلاب . وابو بكر محمد بن الحسن النقاش الموصل البغدادي العالم نسب الى نقش السيوف والجدران لما رسمه ذلك وحذقه به . وابو العباس محمد بن صبح المعروف بابن المماليك الكوسية الزاهد نسب الى صيد السمك ويحبه . وابو بكر محمد بن السري النحوي المعروف بابن السراج نسب الى عمل السروج . وابو عبد الله محمد بن جعفر التميمي النحوي الملقب بالقرظاز القيرواني نسب الى عمل القر ويحبه . ومعاذ بن مسلم الهراء كان يبيع الثياب المروية فنسب اليها . وابو منصور الجواليقي نسب الى عمل الجوالق ويحبه . وابو يزيد وشيعة الوشاء كان يخبز بالثياب المصنوعة من الابر يسم الموشاة . ومحمد بن رضوان بن الرعاد كان خياطاً واقتنى مكتبة من صناعته . وشمس الدين الدهان الدمشقي الشاعر كان يمارس صناعة الدهان . والتصير الحماي كان يشحرف باكتراء الحمامات ويستجدي شعره . وابو بكر محمد بن احمد بن محمد المعروف بابن الحداد الفقيه الشافعي المصري نسب الى احد اجداده الذي كان يعمل الحديد ويحبه . وابو بكر محمد بن عبد الله المعروف بالصيرفي الفقيه الشافعي البغدادي نسب الى الصرافه . وابو عبد الله محمد بن الكتاني الشافعي المعروف بابن الكندي في الشاعر كان بعض اجداده يعمل الكبريت ويحبه فنسب اليها . وابو الرداد عبد الله بن عهد السلام بن الرداد المؤذن البصري عمل المقياس بصرفه اثناء القرن الثالث للهجرة . ونجم الدين النخعي الشاعر كان في اول امره جندياً مقدماً على النخعيين ببغداد فنسب اليه ومن لطيف منظومه قوله :

كلت يعلم النخعي ورميه لهدم الصياصي وافتتاح الرباط

وعدت الى نظم القريض لشوقي فلم أخل في الحالين من قصد حائط
ويحيى النحوي الاسكندراني كان ملاحاً الى ان بلغ الاربعين من عمره قال الى
العلم واقفه . وكان علي بن رضوان الطيب بن قران . ومن اغرب العلماء ارباب
الصناعات كشاحم الشاعر فان اسمه مفتوح من صناعاته فالكاف من كاتب والشين من
شاعر والالف من اديب والجيم من منجم والميم من مؤدب الى غير ذلك
ومن متأخري العلماء من نسب الى الصناعات مثل القزديري وابن الطباخ وابن
العتار والاسطواني وابن الكيال وابن السقاف وابن السمان وابن الحجر وغيرهم كثير
ومن لقبوا بالصناعات ولا نعلم اذا كانوا قد مارواها ابو جعفر احمد المرادي النحاس
النحوي انصري . وابن الخياط الدمشقي . وابو بكر بن عياش بن سالم الخياط الاسدي
الكوفي . وابو محمد سعيد بن الدهان النحوي البغدادي . وابو القاسم الاسكافي . وظاهر
الحداد الشاعر الاسكندراني . وابن الدهان الموصلاني المعروف بالمهذب . وابن شاس
المنعوت بالخلال . وابن الخشاب البغدادي . وابو نصر عبد السيد ابن الصباغ الفقيه .
وابو القاسم علي بن القطاع الصقلي اللغوي . وابو الحسن علي بن القصار اللغوي . وابو
بكر المبارك المعروف بابن الدهان النحوي القسري الواسطي . وابو بكر محمد بن باجة
الاندلسي المعروف بابن الصائغ الفيلسوف . وابو عبد الله محمد الرفاء الاندلسي
الرصافي الشاعر . ويحيى بن الجراح الكاتب . وموفق الدين النحوي المعروف بابن
الصائغ الحلبي . وابو الحسن شهاب الدين الشواء الحلبي الشاعر . وابن الفجار الدمشقي
الشاعر . وابراهيم الحائك وقيل المعار او الحجر غلام النويري المصري الشاعر الزجال .
وبكر بن علي الصابوني . وجوبان القواس الشاعر . وابن البيطار النابقي الشهير . وعبد
الله بن محمد المغربي الملقب بالعتار الشاعر . وعبدالحق الاشبيلي المعروف بابن اعرط .
وعبد الزاق بن احمد الصابوني المحدث المؤرخ الفيلسوف . وابو بكر الوراق التميمي .
وابو المعالي البقل الاديب . وابن الصغار المازديني . وابو حفص الشطرنجي شاعر
المهدي وابنته علية . وابو عبد الله البغدادي النقاش الاعرابي . ومجاهد بن سليمان المعروف
بالخياط الشاعر . ومحمد بن احمد المعروف بابن الحداد الشاعر . ومحمد بن احمد بن
الصابوني الصدي الاشبيلي . ومحمد بن داود بن الجراح الكاتب . والحافظ الكبير ابن
الفجار البغدادي واضع تاريخ بغداد المطول . وهبة الله بن الفضل المعروف بابن القطان
الشاعر البغدادي . فضلاً عن كثير من ارباب الصناعات الاخر مثل ابي عبد الله

القرضي الحاسب . وابن حفص عمر بن الفارض الشاعر . وابن المعلم الواسطي الشاعر .
 وابن الدهان البغدادي القرضي الحاسب . والثاني الراصد وغيرهم كثير
 ومنهم من تدل اسماءهم على انهم من ارباب الصناعات وهم لم يتماطوها مثل ابي سماء
 حفص ابن سليمان الخلال المحدثاني فانه لم يكن خللاً ولكنه كان يجلس الى محل للخلالين
 قرب داره بالكوفة فلقب بالخلال . ومثل ابي القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي
 النخوي البغدادي الذي لم يشتغل بالزجاج ولكنه صحب ابا اسحق ابراهيم بن السري
 الزجاجي فنسب اليه . وابو سعيد الصدي لم ينسب الى صناعة الصدف بل الى الصدف
 بن سهل وهي قبيلة كبيرة حميرية هبطت مصر . وكثير من العلماء لقبوا بالعسكري ولم
 يكونوا عساكر ولكنهم نسبوا الى (سر من رأى) الملقبة بالعسكر حيث نشأوا لان
 المنتمين لما بناها انتقل اليها بحسبهم فقتل لها العسكر ومنهم ابو الحسن العسكري من اهل
 القرن الثاني للهجرة . ومنهم من سمي باسم عسكر مكرم من كبار الاهواز مثل ابي القاسم
 محمد العسكري وغيره . وابو الحسن الكسائي لم ينسب الى عمل الكساء بل لانه دخل
 مرة على حمزة بن حبيب الزيات وهو ملثف بكساء وقيل بل أحرم في كساء فنسب
 اليه . وابو زيد محمد القاشاني لم يصنع القاشاني المشهور ولكنه نسب الى مسقط رأسه
 قاشان في بلاد فارس . وكمال الدين الفراوي نسب الى فراوة في خوارزم لا الى الفراء
 ومن التكت باسمه انه قيل عنه (الفراوي الفراوي) . وابو بكر الآجري الفقيه لم
 ينسب الى صناعة الآجر (الفريميد) ولكن الى قرية آجر من قرى بغداد . وابو بشر محمد
 الرازي الدولابي لم يصنع الدولاب ولكن نسب الى الدولاب وهي قرية من الري وصناعته
 كانت الوراقة فلعب بالوراق . وابو بكر محمد الصولي الشطرنجي نوحهم بعضهم انه وضع
 الشطرنج أو صنعه والتعجيب انه اشتهر بالعب فيه . والفراء النخوي الكوفي كان
 يفري الكلام ولم يشتغل بالفراء فعرف بهذا اللقب . وابو عمرو بن دراج التسلي نسب
 الى قسطة في الاندلس لا الى عمل القساطل لئلا . وبنو الصدي المصري النقيه لم يعمل
 الصدف بل لسبب آخر سمي بالصدي وهو انه صدق بوجهه مرة فلقبه بهذا اللقب .
 ومحمد بن الحسن الصائغ العروضي اقام بالصاغه زماناً يقرئ الناس فلعب بالصائغ الى
 غير ذلك وهم كثيرون

هذا ماوصلت اليه يد الاستقراء الآن من صناعات المشاهير عند العرب جمعت تبصرة
 وذكرى لمن يتوهمون ان الصناعة تزري بالعلماء والأدباء والمشاهير . على ان الافرنج كثير

الولع بالصناعات مما سافر له مقالة خاصة ان شاء الله في فرصة أخرى . ولقد اعرضت
عن مشاهير المعاصرين واسماء الأُمم التي قدسب الى الصناعات وهي كثيرة في بلادنا قريبة
العهد فلا حاجة الى وصفها . فنجبذا لو كثر الميل الى اسباب العمران بين ظهرائنا وولع
مواطنونا بالصناعات ونحوها مما يوفر الدرامم ويثقل الاوقات ويعود على البلاد بالنفع والا
فان اقتصرنا على العلوم الغربية واللسانية جهود فننتخذها مفتاحاً للعلوم الطبيعية :

زراعة وصناعة وتجارة تجدد البلاد تقدماً وفلاحاً

اسباب عمران فشيء مريحها وخد العلوم لنيلها مفتاحاً

عيسى اسكندر المعلوف

رحلة

دقائق عربية

لا مراء ان من يشتغل بالكتابة ويتوغل في المطالعة يربيه من صور التراكيب ومن
الالفاظ المفردة ما يربك ذهنه واذا راجع كتب النحو وكتب اللغة فلا يهتدي الى ما يجولوه
وجه الصواب فان علماء العربية على كثرة ما ألقوا في علي الصرف والنحو واللغة تراهم قد اغفلوا
من القواعد والتنبيهات والمفردات ما قد ترى بعضه في كتب الشروح او في الكلام
التقديم كما ذكرت ذلك في مقالة بهذا العنوان نشرت في المجلد الخامس والعشرين من
المقنطف وقد اجتمع لدي كثير من هذه الدقائق فلم ادخرها لنفسى بل احببت نشرها
رغبة في ان يكون للأدباء من وراء نصبي فائدة وابتغاء تحليل العبارة من علل الخطأ
فان في بعض المنشورات الحديثة ما يذوب له قلب البلاغة وتدفع له عين الفصاحة
واكبر نصير لتلك المنشورات على تشويه محبا البيان اختلاط الفث بالسمين فبينما تمر فيها
بالبلغ اذابك قد وقعت في ارك تركيب حتى ان المنشورات العامية العبارة اخف جنباً على
الفصاحة مما اجتمع فيه الصحيح بالمتل فيلبس على الضعفاء من اهل الادب العليل بالصحيح
والخطأ بالصواب فيخذلون الخطأ صواباً والعليل صحيحاً وتلك رزية كبيرة على الفصاحة
فمن هنا تعلم ان نشر مثل هذه المقالات التمهيدية للناقص والمبتدئ لهم هي أوسع فائدة واجل
نفعاً وأرفع شأنًا من تأليف كتاب في علم قد صارت المؤلفات فيه تربي على الالوف كما
هي الحال في علم العربية

الدقيقة الاولى

قد اجازوا ان تخاطب جماعة النساء خطاب الواحدة كما اجازوا ان ينعت ويخبر عن الجمع المكسر بالصفة مفردة فيقولون عيونهم نائمة وما اجل العيون الجوراء . ولم اجد من نبه على ذلك فيما وقفت عليه من كتب النحو والصرف مع انه وارد في كلام من بنيت على كلامهم قواعد التصريف والاعراب قال علقمة بن علف المري وهو من شعراء الحماسة ولست بسائل جارات بيتي أغياب رجالك أم شهود

وقال آخر

قد كتب الحسن علي وجهه يا أعين الناس فني وانظري
فقال الاول (رجالك) مكان (رجالكن) وقال الثاني (فني وانظري) مكان (ففن وانظرن)

الدقيقة الثانية

من حق الضمير ان يطابق مرجعه، تذكيراً وتأنيساً وافراداً وتثنية وجمعاً وكذلك اسم الإشارة كما هو معلوم عند صغار الطلبة ما خلا اسم الجمع فقد فضلوا في الاخبار له مراعاة اللفظ على مراعاة المعنى قلت لكن متى كان المقام يقضي الكثرة كانت مراعاة المعنى عين مقضى الحال فيقال هؤلاء قوم كرام وهذا قوم كريم وهذا شعب شجاع وهؤلاء شعب شجعان وكذا حكم اسم الجنس فيقولون ورق خضر باعتبار المعنى وورق أخضر باعتبار اللفظ قال ابو خراش الهذلي

تكاد يدي ندى اذا لمستها وتظهر في اطرافها الورق الخضر
ولم اجد من زاد على ذلك لكنني رأيت في كلام من يوثق بهم جواز مطابقة الضمير وامم الإشارة للخبير فان كان المرجع مؤنثاً والخبير مذكراً اجازوا الاتيان بضمير المذكر وكذا اذا كان المرجع مذكراً والخبير مؤنثاً . مثال الاول قول التبريزي في شرح الحماسة « فائدة اذن هو انه اخرج البيت مخرج الجواب » ومثال الثاني ما جاء في كامل المبرد من قوله « اذا صب لبن حليب على حامض فهي المرخة » وهذا فاش في كلام الفصحاء وقد جاء في سورة الانعام « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي » مكان هذه ربي . قال صاحب الكشاف « فان قلت ما وجه التذكير في قوله « هذا ربي » والاشارة للشمس قلت جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد . وقال صاحب انوار التنزيل « ذكر اسم الإشارة لتذكير الخبر وصيانة للرب عن شبهة التأنيث »

الدقيقة الثالثة

معى أريد بالمفرد العموم ولو لم يكن اسم جنس جمعي كالشجر أو اسم جمع كالشعب والقوم جاز أن يعامل في تعته والأشمار له والأخبار عنه معاملة الجمع وهذا مبني على اعتبار المعنى فقد جاء في سورة الانعام « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امثالكم » قال الزمخشري « فان قلت كيف قيل ام مع افراد الدابة والطائر قلت لما كان قوله تعالى « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا ام على معنى الاستغراق ومعنىها عن ان يقال وما من دواب ولا طير حمل قوله الا ام على المعنى » وقال البيضاوي و « جمع الاسم للعمل على المعنى » ومثله في القرآن ايضاً « وكم من ملك في السموات لا نفني شفاعتهم شيئاً » وذلك لان قوله كم من ملك في معنى كم ملائكة

الدقيقة الرابعة

في الفرق بين « نادها لو تسمع » وبين « نخبها هل تسمع » قال التبريزي في شرح قول مويلى في رثاء امرأة
أمر على الحدث الذي حلت به أم العلاء ونادها لو تسمع
ويروى « نخبها هل تسمع » والفرق بين (لو) هنا وبين (هل) ان (لو) فائدة الشرط هنا والكلام به كلام من غلب الذنوط عليه من ادراكها تحية من زارها و (هل) من حيث كان للاستفهام بصير الكلام به كأنه كلام راج أو طامع في سماعها ويكون المعنى حيا وانظر هل تسمع

الدقيقة الخامسة

حتى رب ان تدخل على الماضي ولكنها جاءت في سورة الحجر داخله على المضارع حيث قال « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » قال الزمخشري لان المتروك في اخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحقيقه فكأنه قيل ربما واد

الدقيقة السادسة

ان الفاء التي تلي همزة الاستفهام انما يراد بها التعقيب قال الزمخشري في تفسير قول القرآن « أفرايت الذي كفر بآياتنا » والفاء جاءت لافادة معناها الذي هو التعقيب كأنه قال اخبر ايضاً بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقيب حديث أولئك

الدقيقة السابعة

(فضلاً) مصدر بتوسط بين الادنى والاعلى للتنبيه بني الادنى واستبعاده عن

الوقوع على نفي الالي واستحقاقه فيقع بعد نفي اما صريح كقولك لا يملك فلان درهم فضلاً عن الدينار واما ضمنى نحو . ونفاصر مهمهم عن ادنى عدد هذا العلم فضلاً أن ترقى الى الكلام المؤسس على علمي المعاني واليان . واكثر الكتب المعاصرة من ذاهلون عن هذا الحكم فيستملون فضلاً في الايجاب كقولك زيد بارع في صيد البر فضلاً عن براعته في صيد البحر وهو مخالف للثاعدة المذكورة مغاير لمنهج البلغاء

الدقيقة الثامنة

قد نشأ في كتب علماء الصرف ان (يدع و يذر) تدأمت ماضيها حتى صار ذلك معلوماً لصبيان المكاتب ولم اعثر في قديم الكلام على ما يخالف ذلك الا في بيت من قصيدة عينية لسويد بن ابي كاهل البشكري وهو

فمعي مساعتهم في قومه ثم لم يظفر ولا عجزاً ودع

قال الشارح : اي سعى مسعاة ابيه في قومه فلم يظفر بما زاد ولا ترك عجزاً الا استعماله والقصيدة من مختارات المفضل الضبي فيؤخذ من ذلك ان المضطر ان يحبي ما أميت كما احياء سويد

الدقيقة التاسعة

لم يذكر النحاة شيئاً في اعراب (حاش لله) وهي في موضع النصب على المصدرية . وانما بقيت على بنائها كبقاء « عن » على بنائها سيف نحو جلس من عن يمينه . ذكر ذلك الزمخشري في تفسير سورة يوسف

الدقيقة العاشرة

من سنن العرب انهم يقولون في نحو بني العنبر بالعنبر وكذلك يفعلون في كل مانيه ألف ولام اذا لم يكن ثم ادغام فيقولون بالعجلان وبعارث في بني العجلان وبني الحارث فان كانت لام التعريف مدغمة مثل النمر لم يعدفوا النون من بني

الدقيقة الحادية عشرة

اذا توالت النعوت او الاحوال وترك العطف كان ذلك اشارة الى ان كل نعت صفة كمال على حدة كقول الزمخشري في مقدمة الكشاف « انشاء كتاباً ساطعاً تبياناً قاطعاً برهانه »

الدقيقة الثانية عشرة

قد اجاز العروضيون وصل همزة القطع لاقامة الوزن وقد عثرت في شرح القصيدة

التي هجاها حسان بن ثابت . سافع بن عياض التيمي عَلَى ما نصه « قوله او اصحاب اللوا
الصيد » خفف الهمزة . وتخفف اذا كان قبلها ساكن فتطرح حركتها عَلَى الساكن
كقوله من ابوك كذا ذكره المبرد في كامله

الدقيقة الثالثة عشرة

ان كثيراً من كتب النحو المتداولة نص على وجوب نصب الفعل بعد فاء السبب في
جواب النفي والصحيح ان ذلك غالب لا واجب بدليل قول الخارثي وهو من شعراء الحماسة
فما حيلتي ان لم تكن لك رحمة علي ولا لي منك صبر فأصبر
وقد جاء في القرآن بالرفع بعد الفاء حيث قال « ولا يؤذن لهم فيعتذرون » ذكر
ذلك سيديويه والدمامي ونقله الصبان في باب النواصب

الدقيقة الرابعة عشرة

ان (احداً) لا يستعمل الا مسبوقة بالنفي ما لم يضاف نحو قام أحد الاربعة او يقع
نعتاً لله نحو هو الله الاحداً يصاحب اسماء العدد كقوله عندني احد وعشرون رجلاً
هذا ما صرح به في كتبهم ولقد رأيت البلغاء يستعملونه قبل النفي كقول الزمخشري
واعلم ان احداً غيره لا يقوم مقامه فيؤخذ من ذلك ان الشرط مصاحبة النفي سواء تقدم
ام تأخر خلافاً لما يفهمه أكثر الادباء من وجوب الوقوع بعد النفي
الدقيقة الخامسة عشرة

قد انكر احد من ادركننا من اهل العصر على احد المعاصرين قوله « قال يوحنا قم
الذهب » وقال الصواب ان يقال الذهبي الغم . قلت ان هذا الانتقاد خطأ لان فم الذهب
لقب ليوحنا فهو يدل منه لا نعت له عَلَى حد قولهم جاء زيد زين العابدين . وذهب
عمروائف الناقة

الدقيقة السادسة عشرة

قد انكر بعضهم استعمال المريض لغير الغنم استدلل بنصوص من كتب اللغة كالصحيح
والمصباح . وقد رأيت في الصفحة ٦٢٦ من الجزء الاول من الكشف في تفسير سورة
يوسف ما نصه « وهو جاثم في مريضه اي الطائر » ومثل الزمخشري جدير بان يوثق
بكلامه

الدقيقة السابعة عشرة

قد انكر بعضهم جمع برهان عَلَى برهانات وجاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ في

الصفحة الثامنة ما نصه « ومن العلامات الناهرة والبرهانات الواضحة فيكون انكاره خطأ وانتقاده غلطاً »

الدقيقة الثامنة عشرة

قد يجزى عن الجمع بالمفرد ولكن على تأويل قال القرآن « كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً » انما واحد ضداً وحقه ان يكون جمعاً لان في كلمتهم وانهم كشيء واحد لفرط تضامهم وتوافقهم وقال القرآن ايضاً « وما جعلناهم جسداً لآباً تكون الطعام يريد ذوي جسده ووجد الجسد لارادة الجنس كما أنه قال ذوي جسده من الاجساد ومثله « وما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً حامدين » ومن هذا الباب قول القرآن ايضاً « ثم نخرجكم طفلاً » قال المفسر : طفلاً حال اجريت على تقدير كل واحد

الدقيقة التاسعة عشرة

قد ورد في الشعر خطاب المرأة بضمير الرجال وذلك كقوله
فلا تحببي اني غشمت بعدكم لشيء ولا اني من الموت أفرق
وكقول سعيد بن حميد يخاطب محبوبته فضل الشاعرة
تظنون اني قد تبدلت بعدكم بديلاً وبعض الظن اثم ومنكر
اذا كان قلبي في يديك رهينة فكيف بلا قلب أصافي وأهجر
ومن هذين الشاهدين تعلم انه يخاطب المرأة بضمير المؤنثة المخاطبة وبضمير جمع المذكر العاقل وهو جائز حيث يؤمن اللبس

الدقيقة العشرون

اذا كان المتكلم في فن ثم شرع في فن آخر من الكلام يصدر الكلام الجديد بقوله (اعلم) تنبيهاً على الانتقال — ذكر ذلك الزمخشري في كتابه

الدقيقة الحادية والعشرون

من سنن العرب ان يستغنى بذكر الشيء عن ذكر نقيضه قال الثعلبي العبدى
ولا تعدي مواعد كاذبات تمر بها رياح الصيف دوفي
اراد رياح الصيف والشتاء فاجتزأ بواحد منهما ومثل ذلك قول القرآن « سراويل
تقيمكم الحر » لم يذكر البرد وهي نقي الحر والبرد فترك البرد اجتزأ بذكر الحر

الدقيقة الثانية والعشرون

من التراكيب المستفيضة الواردة عن البلغاء ما نقدر فيه الجملة بالمفرد . من ذلك

قولهم ما ترى لنا أنهر ب أم نقيم والتقدير ما ترى لنا الحرب أم الإقامة . وهذا لم يجد من تعرض لذكره . نعم قالوا في باب أم المتصلة أنها تقع بين جملتين سيفي تأويل المفرد نحو قول القرآن « سوا عليهم أنذرتهم أم لم تُنذرهم لا يؤمنون »

على أنهم لم يبنوها على أن الجملة تسبك بمصدر الاعم الاحرف المصدرية

الدقيقة الثالثة والعشرون

قد رأيت من الادباء من يشكر استعمال صار بمعنى حصل وهذا خطأ جل به نقص العلم فهي تأتي بمعنى حصل ومن تتبع كتب اللغة يراها واردة بهذا المعنى في عدة مواضع من ذلك ما جاء في مادة (و ق ع) ونصه « وقع في ارض فلاة صار فيها »

الدقيقة الرابعة والعشرون

ان اكثر الأدباء يرون قول العامة بقي فلان بفرد يد خطأ وصوابه « بيد واحدة » والحال انه عربي فصيح فقد جاء في اخبار دعلج في كتاب الاغانى خلف ابن لا يبيعها (اي الحلة) او يعطوه بعضها ليكون في كفته فاعطوه فردكم اي كفا واحداً وقد ورد هذا في غير الاغانى من كتب البلغاء

الدقيقة الخامسة والعشرون

لم أر من نص على ان حيث تقع في مقام التعليل مع انها وردت للتعليل سيفي كلام البلغاء كالزحشري والبيضاوي قال الاول « والامر على عكس ما قدرنا حيث هم جند لآتهم معدون » وقال الثاني وما ضررتهم بالكفران الا انهم كما حيث حرمتوها مزيد الانعام » وهي في كلام هذين الامامين بمعنى لان

الدقيقة السادسة والعشرون

اذا جاز في لفظ مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى فان روعي احدهما في جملة جاز ان يراعى الآخر في أخرى . قال في سورة الحجر « وما تسبق أمة أجلها وما يستأخرون » وقال غلاق بن مروان وهو من شعراء الحماسة

فاضحت زهير في السنين التي مضت وما بعد لا بدعون الا الاشائنا

الدقيقة السابعة والعشرون

اذا قيل لا اشجع من عمرو ولا أجبن من خالد ولذلك يشبه بهما كل متناه في الشجاعة وكل متناه في الجبن يكون المراد ان كل مناه في الشجاعة يشبه بعمرو وكل متناه في الجبن يشبه بخالد لا ان كل متناه في الشجاعة يشبه بخالد ولا كل متناه في الجبن يشبه بعمرو

خلافًا لما يماري فيه من يدعون التعمق في علم العربية وإنما هم واقفون عند ظواهرها
وتعزيرًا لهذا اروي لك ما بين لك الامر كالصحيح قال البيضاوي في تفسير سورة يوسف
« وذلك لان الله عز وجل ركب في الطباع ان لا احسن من الملك كما ركب فيها ان لا اقبح
من الشيطان ولذلك يشبه كل متنامر في الحسن والقيح بهما انه يريد ان كل متنامر في الحسن
يشبه بالملك وكل متنامر في القبح يشبه بالشيطان

سعيد الخوري الشرتوني

بيروت